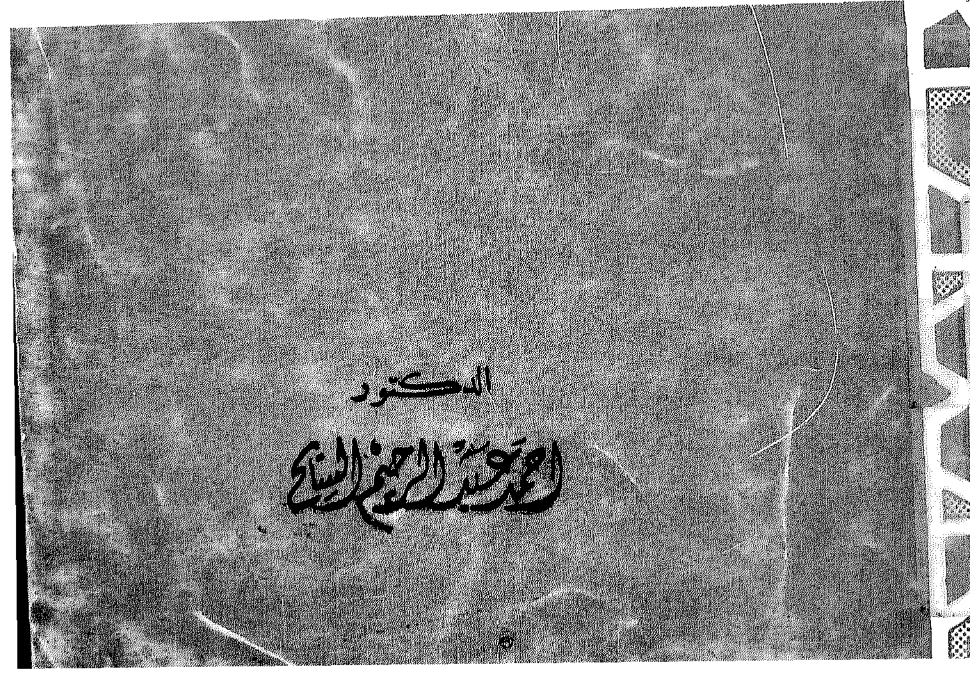
علم العقيدة

بين الأصالة والمعاصرة



الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح





الدكتور

أحمد عبد الرحيم السايح

علم العقيدة

بين الأصالة والمعاصرة

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ — ١٩٩٠ م

دار الطباعة المحمدية

٣ درب الأتراك بالأزهر / القاهرة




بسم الله الرحمن الرحيم



المقـــدمة

الحمد لله رب العالمين . الذى أسبغ على الناس نعمه ظاهرة وباطنة . والصلاة والسلام على رسول الإنسانية محمد الصادق الأمين . الذى بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وهدى إلى القرآن الكريم . أما بعد ...

فإن علم العقيدة من العلوم التى وجد المسلمون أنفسهم فى أشد الحاجة إليها . حيث أن العصور التالية لعصر رسـول الله ﷺ جد فيها من الكلام ما يتصل بالعقيدة . فانبرى العلماء المخلصون يواجهون هذه المشاكل ، ويدافعون عن العقيدة الصحيحة ، واتسع الأمر ، وزادت مساحة المواجهة . وكان لابد لعلم العقيدة أو الكلام من أن ينشأ ، ويواكب المسيرة . ونشأة علم العقيدة نشأة إسلامية . عايشها السلف الصالح ، وعاشوا زمناً طويلا لها .

وعلم العقيدة يبدو ضرورياً ولابد منه لمواجهة الكثير من قضايا العقل التى تقحم نفسها فيما ليس هو من شأنها واختصاصها . .

ولا يخفى أن هـذا العلم كان له دوره فى إثراء الحركة الكلامية ، كما كان له دوره فى مواجهة التحديات . .

وقد ترك علماء العقيدة تراثاً ضخماً لهذا العلم ، يعتبر موسوعة إسلامية أصيلة .

وبكل تأكيد فإن روّاد المعرفة يحتاجون إلى الاقتراب من علم العقيدة للبحث فى قضاياه ومسائله .

وأهل الدراسة والاختصاص وطلاب الجامعات فى أمس الحاجة إلى

علم العقيدة ، حتى تتدرب العقول على المعقول والمنقول ، فتفهم ما لها وما عليها ..

وقد ينطلق العلماء من علم العقيدة ومسائله إلى كون الله المنظور ، يتأملون ، ويدركون ، فيفيدون .

وأن الأمة الإسلامية لابد وأن تقرأ تراث علمائها ، وتستفيد منه بما يمدها بالنافع المفيد .

وليس من الكياسة أن يرفض علم لأن نفراً من العلماء قد عارضوه ، فإن المعارضين درسوه وبحثوه وتعلموه . وما كان لهم أن يعارضوا لو لم يعرفوه ..

وقد وضعت هذا الكتاب « علم العقيدة بين الأصالة والمعاصرة » لينتفع به كل قارىء وباحث ، وطالب معرفة .

أسأل الله أن ينفع به إنه سميع قريب .

المؤلف

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

العقيدة ومفهومها

العقيـــدة مأخوذة من العقد ، والعقد هو الجمع بين أطراف الشيء ويستعمل ذلك فى الأجسام الصلبة ، وعقد الحبل وعقد البناء ، وتوسع فى العقد فاستعمل فى المعانى كعقد البيع ، وعقد النكاح (١) كأنه ربط بين أجزاء ، ويقال : عاقدته ، وعقدته ، وتعاقدنا ، وعقدت يمينه (٢) .

وكلمة « العقيدة » لم ترد فى القرآن الكريم بلفظ « عقيدة » ولكن وردت مادة العقيدة فى عدة مواضع من القرآن الكريم .

— فى قوله تعالى : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدا » (٣) .

— وفى قوله تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان » (٤) .

— وفى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » (٥) .

— وفى قوله تعالى : « ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » (٦) .

---

(١) انظر الفيومى المصباح المنير مادة عقد وراجع الدكتور منصور رجب نظام الإسلام ص ٤٦

(٢) نفس المصدر . (٣) سورة النساء الآية رقم ٣٣

(٤) سورة المائدة الآية رقم ٨٩

(٥) سورة المائدة الآية رقم ١

(٦) سورة البقرة الآية رقم ٢٣٥

— وفي قوله تعالى : « إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » (١).

— وفى قوله تعالى : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » (٢) .

— وفى قوله تعالى : « ومن شر النفاثات فى العقد » (٣) .

والمادة « عقد » تدور حول الأحكام والتوثيق ، وايجاد رابطة بين شيئين ، والاستعمال القرآنى للمادة أضفى عليها مزيداً من الوضوح كما أعطى العقد أبعاداً وأعماقا (٤) .

واذا كانت كلمة « العقيدة » لم ترد فى القرآن الكريم ، وإنما وردت مادتها فقط ، فكذلك المعاجم اللغوية .. إلا المصباح المنير فقد ذكر فيه الفيومى : « أن العقيدة ما يدين الإنسان به ، فهى الإيمان بحقيقة معينة ، إيماناً لا يقبل الشك أو الجدل »(٥) .

وقد ذكر المعجم الوسيط : « أن العقيدة هى الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ، ويرادفها الاعتقاد والمعتقد .. وجمعها : عقائد وتطلق فى الدين على ما يؤمن به الإنسان ويعتقده » (٦) .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢٣٧
(٢) سورة طه الآية رقم ٢٥ ، ٢٦
(٣) سورة الفلق الآية رقم ٤
(٤) الدكتور السيد رزق الطويل العقيدة فى الإسلام منهج حياة ص ١٢ — ١٥ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٠٢ هـ .
(٥) الفيومى المصباح المنير جـ ٢ ص ٥٧٠
(٦) مجمع اللغة العربية المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٦١٤ ط القاهرة .

والعقيدة تعنى الارتباط بين القلب البشرى وفكرة أو رأى أو منهج معين ، وأن هذا الارتباط يتميز بالوثاقة والقوة والأحكام ، كما يتسم بالثبات والاستمرار والاستقرار (١).

والاعتقاد مصدر اعتقد كذا ، إذا اتخذ له عقيدة ، بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ، ودان به (٢).

ويقال : اعتقد الشيء : إشتد وصلب ، واعتقد كذا بقلبه (٣).

وأصله من عقد الحبل ، ثم استعمل فى التصميم والاعتقاد الجازم(٤).

والعقيدة هى الأمر الذى تصدق به النفس ، ويطمئن إليه القلب ، ويكون يقيناً عند صاحبه لا يمازجه شك ، ولا يخالطه ريب .

فالعقيدة مجموعة من قضايا الحق المسلمة بالسمع والعقل والفطرة يعقد عليها الإنسان قلبه ، ويثنى عليها صدره ، جازماً بصحتها ، قاطعاً بوجودها ، وثبوتها (٥).

ويذكر العقاد : أننا نعنى بالعقيدة الدينية طريقة حياة ، لا طريقة فكر ، ولا طريقة دراسة ، إنما نعنى بها حاجة النفس كما يحس بها من

---

(١) الدكتور السيد رزق الطويل العقيدة فى الإسلام منهج حياة ص ١٥ ، ١٦.

(٢) الشيخ محمد خليل هراس شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٣

(٣) الفيروزابادى بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ج ٤ ص ٨٣ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

(٤) الشيخ هراس شرح العقيدة الواسطية ص ١٣ .

(٥) الدكتورة آمنة محمد نصير مباحث فى علوم العقيدة ص ١٠ ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٤ هـ .

أحاط بتلك الدراسات ، ومن فرغ من العلم والمراجعة ، ليترقب مكان العقيدة من قرارة ضميره ، إنما تعنى بها ما يملأ النفس لا ما يملأ الرأس أو يملأ الصفحات (١) .

إن العقيدة التى يصح أن توصف بالعقيدة الدينية ، هى التى لا يستغنى عنها من وجدها ، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها ، ولا يرفضها من اعتصم منها بمعتصم ، واستقر فيها على قرار (٢) .

وإذا كان القرآن الكريم لم يذكر كلمة «عقيدة» وذكر مادتها اللغوية، فإن القرآن الكريم ذكر حقائق أساسية كبرى،هى فى مجموعها موضوع ما سمى بالعقيدة أو العقائد .

وفى مجال العقيدة أو العقائد جاء القرآن الكريم بكلمة « الإيمان » وللقرآن الكريم طريقته الخاصة فى عرض الحقائق وهى طريقة تصلح فى آن واحد للخاصة من الناس والعامة منهم (٣) .

ثم إنه إذا كانت كلمة العقيدة تعنى الربط والتوثيق،فإن كلمة« الإيمان » تعنى الربط والتوثيق ، وما يطمئن إليه القلب ، ويقتنع به اقتناعا ذاتيا ونفسيا .

وهذه الحقائق الأساسية عرضها القرآن على الناس ، وأيدها بالأدلة والشواهد ، ودعا إلى تصديقها والإيمان بها ، وكرر ذكرها بأساليب

---

(١) العقاد العقائد والمذاهب مجلد رقم ١١ ص ٤٠٢ ط دار الكتاب اللبنانى .

(٢) المصدر السابق ص ٤١٣ .

(٣) محمد المبارك العقيدة فى القرآن الكريم ص٩ ، ١٠ ط دار الفكر ١٣٩٤ ببيروت .

شتى ، وطرق متعددة ، وهى التى تؤلف جو القرآن العام ، والأساس الذى تتفرع منه قواعده الخلقية وأحكامه التشريعية لا تنفصل عنه أبداً ، وهى القاعدة الفكرية النفسية ، التى أراد الله أن يقيم عليها بناء الإنسان وتكوينه (١).

ولقد دعا القرآن بالحاح إلى الإيمان بهذه الحقائق الكبرى ، دعا إلى الإيمان بالله خالق الكون وبالحياة الآخرة التى تتجلى فيها مسئولية الإنسان ، ويتحدد مصيره الأبدى ، وبالنبوة والوحى طريقاً إلى معرفة الحقائق التى يريد الله أن يلقيها إلى الإنسان ، سواء أكان موضوعها عالم الغيب ، أو حقائق ما وراء المادة ، أم كان توجيه الإنسان وتنظيم شئونه فى هذه الحياة (٢) .

ومما لا يخفى على الإنسان أن هناك نوعا آخر من الحقائق اشتمل عليها القرآن الكريم وردت فيه على أنها طريق إلى الحقائق الأساسية — من الإيمان بالله وبالحياة الآخرة ، وبالنبوة والوحى — ووسيلة للوصول إليها ، ولكنها تتكرر فى سور القرآن فى صور وأشكال شتى ، مرافقة للحقائق الأساسية ، لتأييدها ودعمها ، ويشتمل هذا النوع على مشاهد الكون فى القرآن بآفاقه الواسعة ، وأنواع مخلوقاته المختلفة ، وحوادثه المتبدلة وسننه المطردة ، ويشتمل بوجه خاص على حياة الإنسان فى خلقه وتكوينه وميوله وغرائزه فى أجياله المتعاقبة .

ومن عرف الحقائق الأساسية الكبرى ، والحقائق الأخرى التى جاءت شواهد على الحقائق الأساسية استطاع أن يخرج بفكرة شاملة عن :

---

(١) محمد المبارك العقيدة فى القرآن ص ٩ بتصرف واختصار .

(٢) المصدر السابق ص ١٠ بتصرف .

— نظرة الإسلام إلى الوجود : وجود الخالق ، ووجود العالم المخلوق : الكون والإنسان .

— ونظرة الإسلام إلى الصلة بين الله والكون ، وبين الله والإنسان وبين الكون والإنسان .

ويتكون من مجموع ذلك عقيدة كاملة ، ونظرة شاملة ، وهذه العقيدة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان ، ولا تثير فى العادة مصاعب عقلية خاصة(١) .

فالتصور الإسلامى يقوم على أساس : أن هناك ألوهية وعبودية ألوهية ينفرد بها الله سبحانه ، وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه . وكما ينفرد الله سبحانه بالألوهية كذلك ينفرد — تبعاً لهذا — بكل خصائص الألوهية : وكما يشترك كل حى ، وكل شىء بعد ذلك فى العبودية . كذلك يتجرد كل حى ، وكل شىء من خصائص الألوهية. فهناك إذن وجودان متميزان :

— وجود الله .

— ووجود ما عداه من عبيد الله .

والعلاقة بين الوجودين هى علاقة الخالق بالمخلوق ، والإله بالعبيد(٢) .

وإذا كان الأمر — كما عرفنا — فما مكان الإنسان من الكون كله ؟

---

(١) توماس ارنولد — تاريخ الدعوة صـ ٤٥٤

(٢) سيد قطب — خصائص التصور الإسلامى ص ١٨٣ ط . دار الشروق ١٤٠٠ هـ .

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء؟

ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟

وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد ، أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان : «الإنسان»؟

وهى أسئلة لا جواب لها فى غير «عقيدة دينية» تجمع للإنسان صفوة عرفانه بدنياه ، وصفوة إيمانه بغيبها المجهول ... تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة : حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان(١) .

وأنت تجد أن القرآن الكريم يخص من هذا الكون مخلوقا هو الإنسان، فيتحدث عنه مرات كثيرة ، بل يخصه بالمخاطبة ، لأنه هو المقصود ، ولكنه فى الوقت نفسه يشعره بموقعه من هذا الكون .

فالإنسان أولا : نوع من أنواع أخرى فى هذا الكون ، يشترك معها فى أمور ، ثم يتميز عنها ، فهو مخلوق من تراب فى الأصل . قال تعالى: «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب»(٢) .

وقال تعالى : «أكفرت بالذى خلقك من تراب»(٣) .

وقوله تعالى : «فإنا خلقناكم من تراب»(٤) .

---

(١) العقاد — الإسلاميات — المجلد السابع ص ٣٩١ ط دار الكتاب اللبنانى .

(٢) سورة آل عمران ، الآية رقم ٥٩

(٣) سورة الكهف . الآية رقم ٣٧

(٤) سورة الحج . الآية رقم ٥

وقوله تعالى : « خلقكم من تراب »(١) :

ويقول بهذه المناسبة «الكسيس كاريل» . فى كتابه : «الإنسان ذلك المجهول » . بعد أن بين المقابلة التامة بين المواد الكيماوية التى تركب منها الجسم البشرى ، والتى يتكون منها التراب بمختلف أنواعه .

يقول : « إن الإنسان مخلوق من تراب بالمعنى الحقيقى الحرفى لهذه الكلمة »(٢) ، وقد جاء فى آية قوله تعالى : « والله أنبتكم من الأرض نباتا »(٣) .

والإنسان ثانياً : نوع من أنواع الحيوانات يدخل فى تصنيفها ، ويشترك معها فى أمور . قال تعالى . « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع »(٤) .

وقال تعالى : « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين »(٥) .

وقال تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم »(٦) .

والإنسان ثالثاً : نوع متميز عن الحيوان ، كما يبدو من قوله تعالى :

---

(١) سورة الروم . الآية رقم ٢٠ ، وسورة فاطر الآية رقم ١١ ، وسورة غافر الآية رقم ٦٧

(٢) الكسيس كاريل — الإنسان ذلك المجهول ص ٩٠ ٢ مكتبة المعارف .

(٣) سورة نوح ، الآية رقم ١٧

(٤) سورة النور . الآية رقم ٤٥

(٥) سورة السجدة ، الآية رقم ٨

(٦) سورة الأنعام . الآية رقم ٣٨

« ثم أنشأناه خلقاً آخر »(١) وذلك من جهة خلقه وتكوينه الجسمى ، كما تشير الآيات أكثر من مرة إلى تسويته « ثم سواه »(٢) ، « فإذا سويته »(٣)، « فسواك فعدلك »(٤) ، وإلى جعله فى أحسن تقويم »(٥) . وتميزه كذلك من جهة العقل والعلم الناميين بسبب الحواس . كما تشير إلى ذلك الآية : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »(٦) ، وكما تشير الآية الأخرى « علم الإنسان ما لم يعلم »(٧) وهو علم يستطيع أن يعبر عنه « خلق الإنسان علمه البيان »(٨) بل هو علم قابل دائماً للنمو والزيادة « وقل رب زدنى علما »(٩)، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم »(١٠) .

والإنسان رابعاً : يتميز بجانب روحى ، أشارت إليه آيات كثيرة كقوله تعالى : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »(١١) وقوله تعالى : « ثم سواه ونفخ فيه من روحه »(١٢) ، وهو الجانب الذى

---

(١) سورة المؤمنون . الآية رقم ١٤
(٢) سورة السجدة . الآية رقم ٩
(٣) سورة الحجر . الآية رقم ٢٩
(٤) سورة الانفطار . الآية رقم ٧
(٥) سورة التين . الآية رقم ٤
(٦) سورة النحل . الآية رقم ٧٨
(٧) سورة العلق . الآية رقم ٥
(٨) سورة الرحمن . الآيات رقم ٣ ، ٤
(٩) سورة طه . الآية رقم ١١٤
(١٠) سورة فصلت . الآية رقم ٥٣
(١١) سورة الحجر . الآية رقم ٢٩
(١٢) سورة السجدة . الآية رقم ٩

رفع مرتبة الإنسان وجعله فى مقام من التكريم ، أسجد الله له الملائكة ، « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »(١) ، وعلى تنمية هذا العنصر من الإنسان بنى الحافظ والمحدث الحكيم الترمذى(٢) ، والإمام ابن القيم ، وغيرهما من علماء السلوك الإسلامى نظرتهم فى ترقية الإنسان فى مدارج الرقى الروحى نحو الله(٣) .

وفى القرآن بعد هذا آيات كثيرة ، فى ذكر نفسية الإنسان وما يميل إليه من زينة الدنيا وشهواتها ، وما يضطرب فيهـا . من مختلف المشاعر والعواطف ، وما فيه من الصراع الدائم الذى ابتدأ منذ قصة آدم ، ولا ينتهى إلا بانتهاء قصة الإنسان كلها على هذه الأرض ، وفيه آيات أخرى لتوجيه الإنسان فى هذه الميول والمشاعر ، وفى ذلك الصراع المحتم (٤) .

ويقول الإمام ابن القيم : اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلقه لنفسه ، وخلق له كل شىء ، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره ، وسخر له ما فى سمواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته — الذين هم أهل قربه — استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه ، ويقظته ، وظعنه وإقامته ، وأنزل إليه وعليه ، كتبه ، وأرسله ، وأرسل إليه ، وخاطبه وكلمه منه وإليه . فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات(٥) .

---

(١) سورة الإسراء . الآية رقم ٧٠

(٢) الحكيم الترمذى من علماء السنة ولد سنة ٢٠٥ هـ وتوفى سنة ٣٢٠ هـ . وله مصنفات كثيرة .

(٣) انظر محمد المبارك — العقيدة فى القرآن الكريم ص ١٩ بتصرف .

(٤) محمد المبارك — العقيدة فى القرآن الكريم ص ١٩

(٥) ابن القيم . مدارج السالكين ح ١ ص ٣١٠ ط السنة المحمدية .

حاجة الإنسان إلى العقيدة

الاعتقاد شيء مركوز فى النفس، مستقر فى قلب الإنسان، لا يستطيع إنسان أن ينكره. فالنفس أو الفطرة خلقها الله تعالى وأودع فيها هذا الاتجاه إلى الخالق. وإن الإنسان مهما ابتعد عن منهج الله، فلن يستطيع أن يغير فطرته.

قال تعالى: «فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله»(١)

وقال تعالى: «ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها»(٢).

فعاطفة الاعتقاد أمر غريزى ومشترك بين الناس عامة فى كل عصر ومكان. فإنه لم تخل جماعة من الناس فى أى زمان من عقيدة دينية على نحو ما. وإذا كان الدين والاعتقاد أمراً غريزيا وفطرياً فى الإنسان فى كل زمان. فإن الإسلام هو الدين الحق الذى رضيه الله تعالى للناس جميعاً(٣).

فالإنسان لا غنى له عن الدين لأنه يحسه فى نفسه شعوراً ووجداناً، ويشير إلى هذا الشعور والوجدان ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه، أن

---

(١) سورة الروم. الآية رقم ٣٠
(٢) سورة الشمس الآيات من رقم ٧ : ١٠
(٣) الدكتور محمد يوسف موسى الإسلام والحياة ص ٧ ط مكتبة وهبة بالقاهرة.

رسول الله ﷺ قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة »(١) . وقول الله عز وجل : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون »(٢) .

ففى هذه الآية يبين الله تعالى أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلا بعد نسل ، على هيئة ذر . وذلك قبل خلقهم فى الدنيا ، وأشهدهم على أنفسهم قائلا لهم : « ألست بربكم » ؟ فأجابوا « بلى شهدنا » بذلك فالله سبحانه وتعالى أشهدهم على ربوبيته حتى لا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين أو غير عالمين(٣) . فطبيعة الإنسان فيها استعداد فطرى لمعرفة الله ، وهذه الفطرة مستأصلة فى الإنسان ، وموجودة منذ الأزل فى أعماق روحه(٤) .

ومن هنا كان الاعتقاد أمر لابد منه ، وأن الدين الحق رحمة للناس جميعاً على اختلاف عقولهم وقدرتهم على التفكير ، وأنه هدى ونور ، وأن العلم لا يغنى عنه شيئاً (٥) .

فالاعتقاد أو الدين عنصر ضرورى . والإنسانية بحاجة إليه للكمال

---

(١) رواه البخارى . كتاب الجنائز . باب إذا أسلم الصبى ج٣ ص ٢١٩ ورواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٢ ص ٢٥٣

(٢) سورة الأعراف . الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣

(٣) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ٢٦٤

(٤) الدكتور سامى عفيفى حجازى العلاقة بين العقيدة والأخلاق فى الإسلام ص ٥٣

(٥) الدكتور محمد يوسف موسى الإسلام والحياة ص ١٠

النفسي والروحي . فالإنسان جسم وروح . والجسم يتغذى بالطعام والشراب ، بينما تتغذى الروح بالإيمان والعقيدة . وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة ، محقق لصالح الفرد والجماعة ، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق . فليس ديناً فقط ولكنه دين ونظام حياة ، لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والإنسان عن الصلة بين الإنسان والإنسان ، وهو ينظمهما جميعاً(١).

فالدين الإسلامي عقيدة شاملة ، لتنظيم الحياة وتفسيرها ، واستجابة لحاجات النفس الإنسانية ، ومشعل يضيء الطريق أمام الناس ، ويبلغ بهم غايات السعادة والاستقرار ، ووسيلة لتقدم العلاقات العامة والخاصة(٢) .

هذه العقيدة التي جاء بها الإسلام ، هي أعطف شيء على الإنسان في مصائبه ، وأحنى آس عليه في نوازله ، يعتصم بها في مخاوفه ، ويلتجيء إليها في أموره ، ويستسهل بها صعوبات الحياة ، ويموت بها مرتاحاً ، قرير العين ، لتيقنه أن يداً تنتظره إلى عالم أرقى ، وقدرة تحف به ، تحفظه من عاديات الفناء ، وجائحات العدم(٣) .

تأمل في أمر هذه العقيدة التي تمس أخص حياة الإنسان ، وتدبر بإمعان في شعوبها وفنونها السارية في سائر عواطف النفس :

تأمل وتدبر . . ترى قوى النظر والشم واللمس والذوق والحس

---

(١) أنور الجندي . منهج الإسلام في بناء العقيدة والشخصية ص ٣٩

(٢) عبد الله جمعة أحمد العويشق . الأدب في خدمة الحياة والعقيدة ص ١٧ ط الرياض السعودية .

(٣) أحمد السايح . عباس العقاد فيلسوفاً ص ١٦٤ رسالة ماجستير .

مستخدمة ومسخرة لهذه العقيدة . وما مناظر هـــذا الجمال التكوينى إلا مثيرات لهذه العقيدة ، موقظات لزيادة الشعور بها .

والعقيدة الإسلامية كاملة لأنها من عند الله ، وماكان من عند الله كان أتم وأكمل .

ومن أبرز الخصائص التى تختص بها العقيدة الإسلامية :

— أنها تربط الإنسان بالله ، وبقوى الكون الظاهرة والخافية .

— إنها تبث الثقة والطمأنينة فى الإنسان ، وتمنحه القوة لمواجهة القوى الإلحادية والأوضاع الباطلة .

— إنها توضح للإنسان غايته واتجاهه وطريقه .

— إنها تجمع للإنسان طاقاته وقواه ، وتدفعها فى اتجاه الغاية .

— إنها تقدم للإنسان الحل لمشكلاته جميعها على امتداد الأزمنة والأمكنة .

— إنها تقدم الحلول ومعها المؤيد لتنفيذها والإبقاء عليها .

— إنها تتسع لكل أنواع النشاط الإنسانى ، وتربط بين المنطق والواقع ، والمادة والروح .

— إنها عقيدة استعلاء من أخص خصائصها ؛ أنها تبعث فى روح المؤمن بها الإحساس بالعزة من غير كبر ، وروح الثقة من غير اغترار ، وشعور الاطمئنان من غير تواكل .

حقيقة أساسية من حقائق الوجود . وهى فى ذاتها كفيلة بتعديل القيم والموازين ، وتعديل الحكم والتقدير ، وتعديل المنهج والسلوك ، وتعديل الوسائل والأسباب . ويكفى أن تستقر هذه العقيدة فى قلب الإنسان المؤمن ، لتقف به أمام الدنيا كلها بمن فيها ، وما فيها ، عزيزاً كريماً .

ومن يتأمل العقيدة الإسلامية ويتدبر ماجاءت به من مفاهيم تناولت معضلات الحياة . إن من يتأمل ذلك يحس بالاطمئنان ويتخلص من الحيرة التى تواجه كثيراً من المنكرين(١) .

والحقيقة التى أثبتتها السنون الحافلة بالأحداث والخطوب والمحن . أن العقيدة الإسلامية هى العقيدة الشاملة ، والعقيدة المثلى للإنسان والمجتمع، رعاية للروح والجسد . وعمل للدنيا والآخرة ، وجهاد فى السلم والحرب، ودستور للحاكم والمحكوم ، وتنظيم للعلاقات والصلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات والأمم ، على خير مايمكن أن يكون التنظيم .

فالعقيدة ضرورة لا غنى عنها للفرد والجماعة . ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ، وتطهر نفسه . وضرورة للمجتمع ليستقر، ويتماسك ، ويرتفع، وينهض .

فالفرد بغير عقيدة كالريشة فى مهب الريح تحوله يميناً وشمالا فلا يسكن له حال ، ولا يستقر له قرار ، وليس له جذور تثبته .

والمجتمع بغير عقيدة ، مجتمع غابة(٢) . وإن ظهرت له بوارق الحضارة فهو مجتمع تعاسة وشقاء ، ليس له غايات وأهداف . وأهله يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .

وقد كانت العقيدة الإسلامية إيذاناً بمولد مجتمع يخالف المجتمعات التى جعلت أساس مجتمعاتها الجنس أو القبيلة أو السلالة أو الإقليم أو اللغة بخلاف الإسلام الذى جعل أساس مجتمعه العقيدة .

---

(١) أحمد السايح . العقاد فيلسوفا ص ١٦٦

(٢) محمد أمين حسن . خصائص الدعوة الإسلامية صـ ٢٥٧ ط مكتبة المنار الأردن .

فالرومان والفرس واليونان والعرب — قبل الإســـلام — بنوا مجتمعاتهم على الأسس السابقة. وما أن أهل الإسلام حتى عمل على هدم هده الأسس وأحل محلها العقيدة، وبين أن أصل البشر واحد، ولا يمكن حجب هذه الحقيقة بالجنس أو النسب(١).

قال تعالى: «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»(٢).
وقال تعالى: «يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة»(٣).

وقد بين الرسول ﷺ هذه الحقيقة بقوله: «الناس كلهم بنوا آدم، وآدم خلق من تراب، ولا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى»(٤).

فالعقيدة قوة لا تكافئها قوة فى ضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه فالإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شىء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع فى يده، ولا عنقه ولا يجرى فى دمه، ولا يسرى فى عضلاته وأعصابه. وإنما هو معنى اسمه: العقيدة. ومن هنا كان الإنسان مقوداً أبداً بفكرة صحيحة أو فاسدة. فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شىء، وإن فسدت فسد كل شىء(٥).

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٧، ٢٥٨
(٢) سورة الحجرات. الآية رقم ١٣
(٣) سورة النساء. الآية رقم ١
(٤) السيوطى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ج ٦ ص ٩٨
(٥) الدكتور محمد عبدالله دراز الدين ص ٩٩ ط دار القلم ١٤٠٠ هـ

أجل ... إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدها لإقامه مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق ، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل .

فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية ، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون .

ومن الخطأ البين أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحدها ضمانا للسلام والرخاء ، وعوضاً عن التربية والتهذيب الدينى والخلق . ذلك أن العلم سلاح ذو حدين : يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير . ولابد فى حسن استخدامه من رقيب يوجهه لخير الإنسانية ، وعمارة الأرض ، لا إلى نشر الشر والفساد . ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان (١) .

والعقيدة الإسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية فى مختلف ملكاتها ومظاهرها . ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين من طبيعة الإنسان نفسه . فقد خلقه الله تعالى ، ومنحه طبيعه الكائن المتكيف . وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى الدين نزعة فطرية وأصيلة ركبت فيه وفطر عليها (٢) .

والعقيدة هى أساس قيام المجتمع ، وأساس صلاحه أو فساده بل هى أساس بقائه واستمراره ، لذا كانت حاجة الإنسانية إلى الإسلام عقيدة وسلوكا . وذلك لأنه يصرف النفوس عن شهواتها ، ويعطف القلوب عن إرادتها (٣) .

---

(١) المصدر السابق ص ٩٩

(٢) الدكتور سامى عفيفى حجازى العلاقة بين العقيدة والأخلاق ص ٥٨

(٣) المصدر السابق ص ٦١ بتصرف

هذه العقيدة هي التي تحل لغز الوجود ، وتفسر للإنسان سر الحياة والموت ، وتجيب عن أسئلته : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولم ؟

هذه العقيدة ليست من مستحدثات الإسلام ، ولا مما ابتكره محمد عليه الصلاة والسلام . إنها العقيدة المصفاة التي بعث بها أنبياء الله جميعاً ، ونزلت بها كتب السماء قاطبة ، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل ، إنها الحقائق الخالدة التي لا تتطور ولا تتغير ، عن الله وعن صلته بهذا العالم . ما يبصره منه وما لا يبصره ، وعن حقيقة هذه الحياة ودور الانسان فيها وعاقبته بعدها .

إنها الحقائق علمها آدم لبنيه ، وأعلنها نوح في قومه ، ودعا إليها هود وصالح عادا وثمودا ، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله ، وأكدها موسى في توراته ، وداود في زبوره ، وعيسى في إنجيله (١) .

كل ما فعله الإسلام أنه نقى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة ، وصفاها من الأجسام الغريبة ، التي أدخلتها العصور عليها . فكدرت صفاءها ، وأفسدت توحيدها بالتثليث والشفاعات . واتخاذ الأرباب من دون الله ، وأفسدت تنزيهها بالتشبيه والتجسيم ، ونسبة ما في البشر من قصور ونقص إلى الله — تعالى علواً كبيرا — وشوهت نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان ، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم . كما عرض الإسلام هذه العقيدة عرضاً جديداً ، يليق بالرسالة التي اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلهية ، وأن تكون غاية لكل البشر (٢) .

---

(١) الدكتور يوسف القرضاوى الإيمان والحياة ص ٢٤ ، ٢٥ طبعة مؤسسة الرسالة

(٢) الدكتور يوسف القرضاوى الإيمان والحياة ص ٢٥

جاءت عقيدة الاسلام فنقت فكرة التوحيد ، وكمال الألوهية ، مما شابها على مر الأعصار ، ونقت فكرة النبوة والرسالة مما عراها من سوء التصور ، ونقت فكرة الجزاء الأخروى مما دخل عليها من أوهام الجاهلين وتحريف المغالين وانتحال المبطلين . ودجل المشعوذين(١) .

---

(١) المصدر السابق صـ ٢٥

عقائد الناس قبل الإسلام

عقائد الناس قبل الاسلام كانت تنبيء عن فوضى اجتماعية وفكرية، وتدل على انحراف العقل البشرى، وسقوطه فى حمأة الجهل، والتردى فى الهاوية.

— كان هناك كثير من أرباب الملل، والنحل، والمذاهب والتيارات.

— كان هناك من اعتقد التثليث، والحلول، والواسطة بين الخالق والمخلوق.

— كان هناك من عبدوا الأجرام العلوية ونصبوا لها الهياكل.

— وكان هناك عبدة النار والدهريون والطبيعيون والوثنيون.

— وكان هناك اليهود والنصارى والصابئة والأحناف والعرب كان فيهم من كل ملة ودين، وكانت الزندقة والتعطيل فى قريش، والمزدكية والمجوسية فى تميم، واليهودية والنصرانية فى غسان، والشرك وعبادة الأوثان فى سائرهم(١). ويجمع القرآن الكريم أصناف العرب من حيث الاعتقاد فى قوله تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢)

---

(١) أنظر الدكتور سيد عبدالتواب محاضرات فى علم التوحيد ص٦٣ ط الجبلاوى.

(٢) سورة البقرة، الآية رقم ٦٢

ويشير القرآن إلى اليهود والنصارى فى قوله تعالى : « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل »(١) وقوله تعالى: «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء »(٢) .

أما الصابئة فكانوا يصدقون بالإله لكنهم يجعلون بينهم وبين الإله واسطة روحانية ، ويعتقدون أن الكواكب هى هيا كل لهذه الوسائط الروحانية ، ومن ثم توجهوا إليها بالعبادة فهم عبدة الكواكب .

وأما المجوس فقد قالوا بأصلين للعالم ... إحدهما للخير ويسمى: النور وثانيهما للشر ، ويسمى : الظلمة .

أما المشركون فقد اختلفت أصنافهم وطوائفهم :

— فمنهم من آمن بالله لكنه أنكر البعث . وقد تحدث عنهم القرآن فى قوله : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »(٣) .

— ومنهم من آمن بالله وبحدوث العالم وبنوع من الإعادة لكنهم أنكروا الرسل ، وعبدوا الأصنام ، بدعوى أنهم شفعاؤهم عند الله فى الآخرة ، وإلى هذا يشير القرآن فى قوله : « ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون »(٤) .

---

(١) سورة التوبة . الآية رقم ٣٠
(٢) سورة البقرة . الآية رقم ١١٣
(٣) سورة يس . الآيتان ٧٨ ، ٧٩
(٤) سورة الزمر الآية ٣

— ومن المشركين من أنكر الخالق والبعث وقال بالطبع المحى والدهر المفنى . وقد تحدث عنهم القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » (١) وفى قوله تعالى « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين » (٢) .

فأنت ترى أن الطوائف والملل والنحل والمذاهب والأديان متعددة (٣) ولها عقائدها المختلفة والتى تؤدى إلى اضطراب فى الفكر وخلل فى المجتمع ، وانشقاق ، وقلق . وفى وسط هذا كله بعث الله عبده ورسوله محمد ابن عبد الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون . فأقام الحجة ، وأيقظ العقل ، وأذاع فى الناس سلطان العقل الذى حقروه ، وحاكمهم إليه ، ودعاهم إلى نبذ التقليد ، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله وسلك مسلكا لا يرتفع عن مستوى إدراكهم ارتفاعاً يباعد بينهم وبينه (٤) .

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢٤

(٢) سورة الأنعام الآية ٢٩

(٣) الدكتور سيد عبد التواب محاضرات فى علم التوحيد صـ ١٣، ١٤

(٤) الدكتورة أمنة نصير مباحث فى علوم العقيدة صـ ١٥ ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٤ هـ

حال العقيدة فى عصر رسول الله ﷺ

لقد جاء محمد ﷺ بالعقيدة الصحيحة التى تأخذ بالناس إلى الصراط المستقيم . وأعلن رسول الله فى طوائف البشر :

١ — أنه رسول الله بعثه للناس كافة بشيراً ونذيرا .

٢ — إبطال عبادة الأصنام وما يعبد من دون الله والاتجاه إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد .

ولقد أشار إلى هذين المبدأين معاً القرآن الكريم ، فى قوله تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنمـــا إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين » (١) .

٣ — وأعلن أيضاً القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة (٢) .

وكان لابد أن يواجه القرآن الكريم حين بدأ نزوله كثيراً من أرباب الملل والنحل التى أصبحت غير مقبولة كى تملأ القلوب والعقول بالعقيدة الصحيحة .

— واجه اليهود الذين انحرفوا عن عقيدتهم الصحيحة التى أبرزها لهم أنبياؤهم عليهم السلام .

— كما واجه النصارى الذين ضلوا الطريق الصحيح الذى جاء به عيسى عليه السلام .

— وكانت المواجهة أشد وأعنف مع الوثنيين ممن ليسوا من أهل الكتاب . وكانت مكة مسرحاً لهذه المواجهة (٣) .

---

(١) فصلت الآية رقم ٦

(٢) الدكتورة أمنة نصير مباحث فى علوم العقيدة ص١٦ بتصرف .

(٣) الدكتور محمد عبد الستار نصار العقيدة الإسلاميـــة أصولها وتأويلاتها ص ٦٥ ط دار الطباعة المحمدية ١٤٠٩ هـ

فمواجهة القرآن الكريم لمخالفيه من أرباب الأديان والملل كان لابد منها لرد الشبهات التى كانوا يثيرونها حول عقائد الدين الجديد على أن القرآن كان لا يمد فى حبل الجدل رغم ضرورة المواجهة وذلك حرصاً على الفائدة والسلامة وتنبيه العقل ليستيقظ . وكثيراً ما تختم آيات الجدال بمثل قوله تعالى :

— « إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون » (١) .

— « وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون * الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » (٢) .

— « ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٣) .

وبعد هذا الذى ذكرناه يمكن أن نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن البيئة التى نزل فيها القرآن الكريم كانت ذات عقائد ، وأن الملل والنحل المختلفة قد وقفت من العقيدة الجديدة موقف الرافض المجادل . كل بحسب قدرته وتصوره

ثانيا : أن القرآن الكريم جادلهم بما كان يتنزل على رسول الله عند المواجهة .

ثالثاً : أن إقرار مبدأ المجادلة لأهل الكتاب والمشركين يعتبر أساساً شرعياً لعلم العقيدة فى إطار المهمة التى نيطت به، وبشرط ألا يتجاوز « التى هى أحسن » كما قرر القرآن الكريم .

رابعاً : أن أصول العقيدة الصحيحة لا تتمكن من القلب إلا بالنظر الدقيق لمن هو أهل له .

---

(١) سورة الزمر آية ٣ . (٢) سورة الحج الآيتان ٦٨ ، ٦٩

(٣) سورة الأنعام من الآيه ١٦٤ .

خامساً : أن القرآن الكريم قد جاء بمنهج مزدوج . أحد وجهيه : لهدم العقائد الفاسدة بإصابة مواضع الخلل فيها .

وثانيها : لبناء العقيدة الصحيحة . وهذا الوجه قد خاطب الإنسان بكل مستويات إدراكه : الحسية والعقلية والبصيرية .

سادساً : أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد جعل حداً فاصلا بين جدال المعاندين ، وبين طائفة المؤمنين الذين صدقوا بما جاء به . حتى لا يشوش ذلك على عقيدتهم (١) .

وأن الباحث فى هذا الموضوع يجد أن القرآن الكريم قد استوفى مسائل العقيدة ، وأحاط بمشاكلها ، فعرضها واحتج لها ، ودافع عنها . كما استوفى كل الشبه ما كان منها فى عهده ، وما كان منها فى العهود السابقة على نزوله فعرض لهذه الشبه ، وفندها وأقام الحجج على زيفها (٢).

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يستجيبون لنصوص القرآن الكريم دون اللجوء إلى الأبحاث العقلية حول هذه النصوص .

يقول صاحب مفتاح السعادة « إن الصحابة أدركوا زمان الوحى ، وشرف صحبة صاحبه ، وأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والأوهام » (٣) ولهذا مضى عهده ﷺ والمسلمون على عقيدة واحدة هى ما جاء فى كتاب الله (٤) « والصحابة كانوا يعرفون الله بمعجز النبى ﷺ

---

(١) الدكتور محمد عبد الستار نصار العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلاتها ص ٦٩

(٢) الدكتور سيد عبد التواب محاضرات فى علم التوحيد ص ١٦ .

(٣) انظر الدكتور سيد عبد التواب محاضرات فى علم التوحيد ص ١٧

(٤) المصدر السابق ص ١٧

أو قرائن صدقه ، وإنما كانوا يفرعون جميع عقائدهم على تصديق النبي ﷺ بالمعجز فهم أو أكثرهم استفادوا معرفة الله من الأنبياء . فإن قيل : فلماذا حث الله على التفكر في خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات . وهلا اقتصر الحث على النظر في معجزات الأنبياء وأحوالهم ؟ قلنا لسنا ننكر أن ذلك طريق واضح ، لكنا نقول : إن هذا أيضا طريق واضح آخر . والطرق إلى معرفة الله كثيرة (١) .

ويذكر العلماء : أنه لم تخل فترة من الزمان منذ بدأ الإسلام من مشتغل على نحو أو آخر بعلم العقيدة . أو بعبارة أخرى عن الحديث في الأمور الغيبية حتى أننا نلمس بذور الاشتغال بالكلام في صدر الإسلام ، رغم كراهية الجدل في هذه المسائل (٢)

عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : قال رسول الله ﷺ «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم »(٣) .

وروى من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال :

خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر فخرج مغضباً حتى وقف عليهم . فقال : ياقوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضهم ببعض . وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ، ماعرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به »(٤) .

---

(١) ابن الوزير ، البرهان القاطع ص ٤٠
(٢) الدكتورة أمنة نصير مباحث في علوم العقيدة ص ١٧ ،
(٣) متفق عليه .
(٤) السيوطي صون المنطق جـ ١ ص ٣٠

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب حتى أحمر وجهه ثم قال : أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حتى تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا »(١) .

وإذا كان الجدل والمراء فى الدين غير مرغوب فيهما ، فإن الأمور التى يمكن الإجابة عليها لا تدخل تحت هذا النوع المنهى عنه لاسيما إذا كانت تثار على ألسنة المسترشدين وطالبى الحق .

ومن ذلك ما أجاب به رسول الله ﷺ أهل اليمن حين سألوه « أين كان الله عز وجل قبل أن يخلق خلقه ؟ فقال : كان فى عماء ، تحته هواء وفوقه هواء » .

وفى رواية : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض »(٢) .

ويمكن أن يقال : إن طلب الحق من بعض المؤمنين كان يلبى عندما يكون الأمر سانحاً بذلك ، وإلا فلا إجابة ، وهذا يؤدى بالضرورة إلى نزوع العقل دائماً إلى معرفة المساتير والمغيبات(٣) بحكم طبيعة الإنسان التى تتطلع إلى المعرفة .

وسؤال بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على أن

---

(١) أبى حامد الغزالى ، المنقذ من الضلال ص ١٣ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود

(٢) السيوطى صون المنطق ص ٣٥

(٣) الدكتور محمد عبد الستار نصار ، العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلاتها صـ ٧٠

أمور العقيدة فى بعض جوانبها ينبغى ألا تقف عند حد التقليد والتلق الذى لا يعقل ، وهذا يدل على أن النهى عن الجدل لم يكن مطلقاً بل كان مقدراً بقدره(١) .

فالصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخوضون مع رسول الله ﷺ فى دقائق المسائل ويتفهمون عنه حقائق الإيمان ، وكانوا يوردون عليه ما يشكل عليهم من الأسئلة والشبهات ، فيجيبهم عنها بما يثلج صدورهم وقد أورد عليه من الأسئلة أعداؤه وأصحابه ، أعداؤه للتعنت والمغالبة وأصحابه للفهم والبيان ، وزيادة الإيمان ، وهو يجيب كلا عن سؤاله إلا ما لا جواب عنه كالسؤال عن وقت الساعة »(٢) .

ويمكن أن يستخلص الباحث من ذلك : أن التفكير فى مسائل العقيدة لم يكن وليد العصور التالية لعصر الرسول ﷺ ، بل ظهرت فى عصر الرسول بوادر التفكير العقدى ، وبذور النظر العقلى (٣) .

---

(١) الدكتور محمد عبد الستار نصار العقيدة الإسلامية ص ٧١

(٢) ابن القيم زاد المعاد فى سيرة خير العباد حـ ٣ ص ٥٧

(٣) انظر الدكتور محمد عبد الستار نصار ، العقيدة الإسلامية ص ٧١ وانظر الدكتورة أمنة نصير ، مباحث فى علوم العقيدة ص ١٨

حال العقيدة فى عصر الخلفاء الراشدين

أما عصر الخلفاء فإن الصحابة رضوان الله عليهم قد ساروا على ما سار عليه الرسول من الاهتمام بما أمر الله سبحانه وتعالى به ، وترك ما نهى عنه .

لقد كان اهتمام الصحابة موجهاً إلى الأحكام العملية ، ولم يتعرضوا لشيء من الأمور الاعتقادية ، وإذا جد جديد من الحوادث استشاروا كتاب الله ، وحديث رسوله فإن وجدوا فيهما مايحقق غايتهم نخيراً يجدوا وإلا رجعوا إلى قياس ما حدث على ما وقع فى عهد الرسول ، وإذا لم يجدوا ما يقيسون عليه فإنهم أحياناً يرجعون للرأى الشخصى وتارة للشورة ، حتى تطمئن قلوبهم إلى رأى فيعملون به ويحضون عليه(١) .

ويؤكد المقريزى حقيقة هامة ، وهى أن ما أثير من جدل سبق الإشارة إليه وقع فى مسألة القدر ، أما مسألة توحيد الذات والصفات فلم يرد أنها كانت موضع حوار للصحابة .

يقول المقريزى : « ومن أمعن النظر فى كتب الحديث النبوى ووقف على الآثار السلفية ، علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولاسقيم عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، على اختلاف طبقاتهم ، وكثرة عددهم أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة فى القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد ﷺ ، بل كلهم فهموا معنى ذلك ، وسكتوا عن الكلام فى الصفات ، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل ، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم ، والقدرة ، والحياة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ،

(١) الدكتورة آمنة نصير ، بحوث فى علوم العقيدة ص ١٨ بتصرف

والكلام ، والجلال ، والاكرام ، والجود ، والانعام ، والعز ، والعظمة وساقوا الكلام سوقاً واحداً .

وهكذا أثبتوا رضى الله عنهم ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك ، مع نفى مماثلة المخلوقين ، فأثبتوا رضى الله عنهم بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى ، وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله ، ولا عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة ، فمضى عصر الصحابة رضى الله عنهم على هذا »(١) .

يرجعون إلى كتاب الله ، وإلى سنة الرسول ﷺ ، فيما يشكل عليهم من أمور تتعلق بالدنيا والآخرة(٢) .

ويقول أبو الحسن الأشعرى : « كان الصحابة — رضوان الله عليهم — عند وفاة النبى ﷺ وبعدها على عقيدة واحدة ، وطريق واحد ، ولم يكن أحدهم ليختلف مع الآخر إلا فى فهم أوتيه فى كتاب الله وسنة رسوله ، يعرضه على أخيه ، فإن لم يكن عنده ما يدفعه من سنة أو فهم فى كتاب أو سنة رجع إلى قول أخيه وتقبله أحسن القبول »(٣) .

---

(١) المقريزى ، الخطط جـ ٤ ص ١٨٠ ط القاهرة .

(٢) الدكتور مبارك حسن حسين ، دراسة فى القضايا الدخيلة على الفرق الإسلامية ، ص ١٠ ط مطبعة التقدم ١٤٠٨ هـ

(٣) أبو الحسن الأشعرى مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٣٤ ط القاهرة .

« ونستطيع أن نقسم لك الاختلاف الحاصل فى المسائل الاجتهادية بين الصحابة إلى قسمين :

١ — الاختلاف في مسائل لم تصر فيها بعد من شعار جماعة من أهل الفرق .

٢ — الاختلاف فى مسائل اجتهادية أيضاً اتخذها قوم من بعدهم تكأة إما للطعن فى بعض الصحابة ، وإما جعلوها أساساً لنحلتهم أو استدلوا بها فى مسألة من مسائلهم التى اتخذوها شعاراً لهم »(١) .

فأمر العقيدة فى عهد الخلفاء الراشدين ، قد ظل على ما كان عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نعم . قد حدثت بعض الاختلافات ، بين الصحابة لكنها خلافات لم تتناول مسائل العقيدة ، وإنما تناولت مسائل عملية اجتهادية يرى البعض أن تأثيرها قد امتد حتى شمل بعض مسائل الاعتقاد(٢) .

ومن أمثلة هذه الاختلافات :

أولا : الخلاف حول الصحيفة : فقد روى البخارى بسنده عن عبد الله بن عباس ، أنه قال : لما اشتد بالنبى ﷺ مرضه الذى مات فيه ، قال : « إئتونى بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعدى » .

---

(١) أبو الحسن الأشعرى ، مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٣٥ بتصرف .

(٢) الدكتور أحمد عبد التواب ، محاضرات فى علم التوحيد ص ١٩ .

فاختلف من حوله : هل يجيئون بقرطاس ليملى عليهم الرسول ﷺ، أم يكتفون بما علموه من كتاب الله وسنة رسوله ؟

وقال عمر رضى الله عنه : إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع حسبنا كتاب الله ، وكثر اللغط فى ذلك حتى قال النبى ﷺ : « قوموا عنى لا ينبغى عندى التنازع »(١).

قال ابن عباس : الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله ﷺ » .

ويفسر هذا الحديث ماورد فى كتاب عن عبـــد الله بن يوسف عن عائشة ، قالت : قال لى رسول الله ﷺ فى مرضه ادع لى أبا بكر وأخاك حتى اكتب كتاباً فإنى أخاف أن يتمنى متمن ، ويقول قائل أنا أولى ، ويأبى الله والنبيون إلا أبا بكر » ..

وفى رواية عبدالله بن ربيع عن عائشة : أن ذلك كان فى اليوم الذى بدىء فيه عليه السلام بوجعه الذى مات فيه ..

وقد استخلص ابن حزم من ذلك : أن الكتاب الذى أراد أن يكتبه ﷺ حينما غلبه الوجع ، هو معنى الكتاب الذى أراد أن يكتبه فى أول مرضه أى النص على خلافة أبى بكر رضى الله عنه(٢) .

ثانياً : كان النبى ﷺ قبيـــل مرضه الذى عقبه انتقل إلى الرفيق الأعلى ، قد جهز جيشاً وجعل على رأسة أسامة بن زيد ، ولما اشتد عليه

---

(١) أبو الحسن الأشعرى مقالات الإسلاميين حـ١ ص ٣٥

(٢) راجع الدكتور سيد عبد التواب ، محاضرات فى علم التوحيد ص ٢٠ .

المرض توقف الجيش عن المسير، وقال النبي ﷺ — فى آخر حياته: « جهزوا جيش أسامة لعن الله من تخلف عنه ».

ومع هذا اختلف الصحابة: أيتمون بعث أسامة إيذانا للعرب ولغيرهم بأن وجع النبي ﷺ ووفاته لم تثن عزائم أصحابه عن إتمام ما شرع فيه، أم يبقون أسامة ومن معه يترقبون مايكون من العرب، فقد كان بعضهم يخشى انتقاض العرب، اختلفوا فى ذلك قبيـــل وفاة النبي ﷺ وبعد وفاته.

ولكن أبا بكر — رضى الله عنه — أصر على اتباع الأمر، ثقة منه بأن البركة فى اتباع أمره ﷺ، وأن فى بعثه إرهابا لمن تحدثه نفسه من العرب بالانتقاض(٢).

ثالثاً: لما أذيع نعى النبي ﷺ هلع الخبر بعض أصحابه حتى غيبه عقولهم، فاختلفوا: أمات الرسول ﷺ أم لم يمت؟ حتى قال عمر بن الخطاب فى هذا الصدد، من قال إن رسول الله ﷺ قد مات ضربته بالسيف ووقف أبو بكر — رضى الله عنه — يعلن أن النبي — ﷺ — قد لحق بربه، وأن شأنه فى هذا الأمر شأن غيره من الناس، ثم تلا على الذين هالتهم المصيبة قول الله تعالى: « وما محمـــد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين»(٢).

وعندما سمع عمر هذه الآيات. ثاب إلى رشده، وعلم أن وعد الله حق، ويتلو قوله تعالى: « إنك ميت وإنهم ميتون»(٣)، وقوله تعالى:

---

(١) راجع أبى الحسن الأشعرى، مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٣٥

(٢) سورة آل عمران الآية رقم ١٤٤

(٣) سورة الزمر الآية ٣٠

«وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفائن مت فهم الخالدون »(١) فيخضع لقضاء الله وقدره ، ويؤمن بأن الله تعالى قد اختار لرسوله ما عنده بعد أن أكمل به الدين الذى رضيه لهم . ويقول: « والله لكأنى لم أسمع هذه الآية من قبل »(٢) .

رابعاً: حينما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى اختلف المسلمون فى المكان الذى يدفنون فيه رسول الله ﷺ .

— أيذهبون بجثمانه الطاهر إلى مكة لأنها مكان مولده ومبعثه ثم فيها البيت الحرام الذى فيه القبلة ، وفيها قبر أبيه اسماعيل عليه السلام .

— أم يذهبون به إلى بيت المقدس فيدفنونه فيه حيث يوجد قبر أبيه إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأيضاً به كثير من الأنبياء ؟ .

— أم يبقونه فى المدينة لأنها دار هجرته، ومقر أنصاره الذين أظهر الله بهم الدين ؟

يقف أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — فى هذه المسألة موقف الحكيم فيروى لهم أنه سمع النبي ﷺ يقرر «أن الأنبياء يدفنون حيث يقبضون» وهنا تجتمع كلمة الصحابة رضوان الله عليهم على أن يدفن فى حجرة عائشة التى مات فيها(٣) .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٤

(٢) أبو الحسن الأشعرى مقالات الإسلاميين ح١ ص ٣٥ — ٣٦ بتصرف .

(٣) الشهرستانى الملل والنحل ح ١ ص ٣٠ وانظر الرازي اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٧

خامساً : منع جماعة من العرب الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ فاختلف الصحابة فى شأنهم : أيقاتلونهم أم يتركونهم مخافة أن لا يقووا على قتالهم فتضيع هيبة المسلمين إياهم وهنا — كما تذكر المصادر — ينقسم الصحابة إلى فريقين :

— الفريق الأول : يرى ترك قتالهم ، وهؤلاء على رأسهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واستشهد بقول الرسول ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم » .

— والفريق الثانى: يرى قتالهم وهؤلاء على رأسهم الخليفة أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ويرد أبو بكر على الرأى المخالف لرأيه بقوله : أليس قد قال النبي ﷺ بعد أن ذكر الحديث المتقدم «إلا بحقها» ومن حقها :إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؟ والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه .

ويقاتل مانعى الزكاة حتى رجعوا إلى شرع الله ممتثلين أوامره(١) .

وبعض الباحثين رأى أن هذا الخلاف لم يحسم وأن كل فريق تمسك برأيه واجتهاده ، فقد ظل عمر يناصر أبا بكر رضى الله عنهما حتى لا تتشعب بالمسلمين السبل أو تتفرق الكلمة ، حتى إذا ولى الأمر بعد أن قضى أبو بكر نحبه طبق ما أدى إليه اجتهاده ، فرد إلى هؤلاء الذين قاتلهم أبو بكر لمنعهم الزكاة ما أخذ منهم ، من سبايا وغنائم (٢) .

---

(١) انظر ابن حزم الفصل فى الملل والنحل ح ١ ص ٣٦ والرازى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٨ بتصرف .

(٢) الدكتورة أمنة نصير ، مباحث فى علوم العقيدة ص٢٢

وقد امتد أثر هذا الخلاف حتى كان أصلا لما حدث بعد ذلك من خلاف حول العمل وعلاقته بمفهوم الإيمان والإسلام(١).

سادساً : أما الاختلاف حول الإمامة بعد وفاة الرسول ﷺ فهو فى مسائل اجتهادية ، وهو الذى بقى واستمر مصدر اضطراب فى الأمة الإسلامية فى كل عصورها(٢) ويقول الشهرستانى: «أعظم خلاف بين الأمة وقع خلاف الإمامة إذ ما سل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة فى كل زمان»(٣).

فقد اجتمع عقب وفاة الرسول ﷺ فى ثقيفة بنى ساعدة بمدينة الرسول ﷺ : المهاجرون والأنصار حيث وقع الاختلاف بينهم فى الإمامة . فقال الأنصار للمهاجرين ، «منا أمير ومنكم أمير» .

وتزعم الأنصار سعد بن عبادة الأنصارى ، ثم حضر أبو بكر رضى الله عنه واستدرك الأمر، وكذلك عمر بن الخطاب وحصل خلاف شديد بين المهاجرين والأنصار ، وتكلم كلاهما وعمل على رأب الصدع ، ولم الشعث، وعملوا على تهدئة الفتنة، وبايعوا أبا بكر بالخلافة، وبايعه الأغلبية من المهاجرين والأنصار ،ماعدا نفر من بنى هاشم وأبى سفيان من بنى أمية وأمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى كان مشغولا بتجهيز النبى ومراسم دفنه(٤) .

---

(١) الدكتور سيد عبد التواب ، محاضرات فى علم التوحيد ص ٢٠

(٢) الدكتور مبارك حسن دراسة فى القضايا الدخيلة على الفرق الإسلامية ص١٤

(٣) الشهرستانى الملل والنحل جـ١ ص ٣٠ تحقيق محمد فتح الله بدران والرازى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص١٧

(٤) أبى الحسن الأشعرى، مقالات الإسلاميين جـ١ ص٣٩ والشهرستانى . الملل والنحل جـ١ص٣١

سابعاً : حصل بين الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ خلاف فى أمر «فدك» والتوارث عن النبي ﷺ ، وحسم الخلاف بين الصحابة ماستدل به من الرواية المشهورة عن النبي ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء ماتركناه صدقة»(١).

ثامناً : الخلاف حول تفويض عمر أمر الخلافة إلى ستة من الصحابة(٢).

تاسعاً : الخلاف فى أمر عثمان بن عفان وهل قتل مظلوما أم لا(٣)

عاشراً : الاختلاف حول بيعة علي ثم الخلاف حول أصحاب واقعتى صفين والجمل(٤).

ويتبين مما ذكرنا أن أسس الخلافات التى قامت آنذاك وجدت فى عهد الخلفاء الراشدين . وكان الحجاج بين هذه الخلافات قائم على النقل فى غالب أمره ، وفى بعض الأحيان يكون مشوباً بالنظر العقلى .

— وينقل عن عمر — رضى الله عنه — : أنه أقام الحد على سارق وعزره بأن ضربه أسواطاً فوق القطع ، لأنه قد احتج على ما فعل بقوله : قضى الله على ذلك» . فلما سئل عمر — رضى الله عنه — عن سبب ضربه بالسوط زيادة على قطع يده . قال : القطع للسرقة ، والجلد لأنه كذب على الله»(٥)

(١) الشهرستانى الملل والنحل جـ ١ ص ٣١
(٢) الدكتور سيد عبد التواب ، محاضرات فى علم التوحيد ص ٢٠
(٣) المصدر السابق ص ٢٠
(٤) المصدر نفسه ص ٢٠
(٥) ابن المرتضى، المنية والأمل ص ٨ .

— وعلى بن أبى طالب يتناول فى كلامه كثيراً من مسائل العقيدة التى تدل على بصر نافذ، وعقل دائق. سأله يهودى يأمير متى كان ربنا عز وجل؟ قال: «كان بلا كيف يكون، كان ولا كينونة. ليس له قبل. هو قبل القبل بلا قبل ولا غاية. انقطعت الغايات دونه، فهو غاية كل غاية»(١).

— ومن ذلك ما أجاب به عندما سأله رجل فى مسجد الكوفة هل تصف لنا ربنا فنزداد له حباً؟ فقال. «فكيف يوصف من عجزت الملائكة مع قربهم من كرسى كرامته أن يعلموا إلا ما علمهم؟ فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته».

وقوله حين سئل: أين الله؟ فقال: «إن الذى أين الأين لا يقال له أين» فقيل له: كيف الله؟ فقال: «إن الذى كيف الكيف لا يقال له كيف (٢)

— ومن ذلك حديث الرجل الذى سأل الإمام على عند منصرفه من صفين: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء الله وقدره؟

فقال على: والذى خلق الحبة، وبرأ النسمة، ما هبطنا وادياً ولا علونا تلعة(٣) إلا بقضاء وقدر.

فقال الشيخ: عند الله احتسب عنائى. أما لى من الأجر شىء؟

فقال: بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر فى مسيرتكم وأنتم سائرون

---

(١) ابن عساكر تاريخ دمشق جـ ٢ ص ٢٩٩

(٢) ابن المرتضى، إيثار الحق ص ٩٨.

(٣) التلعة كما فى المصباح المنير: مجرى الماء من أعلى الوادى والتلعة أيضاً ما انهبط من الأرض فهى من الأضداد.

وفى منقلبكم وأنتم منقلبون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرون .

فقال الشيخ : كيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا ، وعنهما كان مسيرنا ؟ .

فقال — رضى الله عنه — لعلك تظن قضاء واجباً ، وقدراً حتما . لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب : وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تأتى من الله لائمة لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ، تلك مقالة اخوان الشياطين ، وعبدة الأوثان ، وخصماء الرحمن ، وشهود الزور ، وأهل العماء عن الصواب فى الأمور هم قدرية هذه الأمة ومجوسها إن الله تعالى أمر تخييراً ونهى تحذيراً ولم يكلف جبراً ، ولا بعث الأنبياء عبثا « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » :

فقال الشيخ . وماذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا ؟

فقال : أمر الله وارادته بذلك . ثم تلا : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » .

فنهض الشيخ مسروراً بما سمع(١)

وإن من يتأمل هذه المواقف ويقف على دوافعها وأبعادها وآثارها يجد نفسه أمام الحقائق التالية :

أولا : كان لابد أن ينطلق العقل الإنسانى فى ظل القرآن الكريم، بعد أن تحرر من أسر الملل والنحل والمذاهب والأديان السابقة وقد رأى أن تعاليم الإسلام تدعو إلى استعمال العقل والتأمل والنظر . وإذا كان

---

(١) ابن المرتضى ، المنية والأمل ص ٧ .

منع الإنسان من الخوض فى بعض المعتقدات فإنما كان ذلك آنذاك لمصلحة عقل الإنسان حتى يتمكن من التسلح بالعقيدة الإسلامية .

ثانياً : كان لابد أن تكون هناك أسئلة مثارة لأن العقل الإنسانى لايتوقف . ولايجمد .

ثالثاً : ما كان الخلفاء الراشدون والصحابة — رضوان الله عليهم — يمنعون أنفسهم عن الإدلاء بما يرونه حقاً فى أمور العقيدة التى تثار من آن لآخر .

رابعاً : مسائل العقيدة أخذت فى عصر الخلفاء طابعاً أكثر تميزاً وتفتحاً .

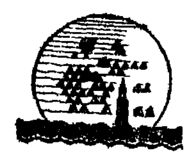
خامساً : امتلاء الساحة بالداخلين فى الإسلام — وهم أصحاب عقائد سابقة — استدعى مواجهة ماقد يطفو من معتقدات والمواجهة تقتضى فهماً ووعياً ومعرفة .

والذين يواجهون الأفكار والتحديات لابد وأن يؤهلوا أنفسهم لهذه المواجهة ، ويتعرفون على ماعند الآخرين .

والعقيدة فى الإسلام هى العقيدة فى مفهومها ومدلولها وآثارها وقد أثيرت فى الفكر الإسلامى قضايا عقدية كان على الإسلام أن يواجهها حتى تبقى عقيدة المسلمين نقية ، بعيدة عن الزيوف والدخيل . والمواجهة لها أسلحتها المختلفة وهى تحتاج إلى علم ومن هنا كانت بداية علم الكلام الذى أخذ طابعاً تميز عن غيره من العلوم .

ومما يجدر أن نعرفه أن علم الكلام لم يكن موجوداً على عهد الرسول — ﷺ — . ولا على عهد الصحابة والتابعين لعدم حاجتهم إلى هذا

النوع من العلم آنئذ . فقد كانوا لصفاء عقائدهم ، وقرب العهد بزمان الرسول ﷺ مستغنين عن هذا العلم. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يكن هناك من الأحداث والفتن والنزاع على عهدهم مايستدعى الجدل والأخذ والرد . بيد أن هذا الوضع لم يدم . فإنه لم تلبث الحال أن تبدلت وجدت ظروف مهدت لنشأة هذا العلم فقد حدثت الفتنة بين المسلمين . وظهر اختلاف الآراء ، وكثرت الفتاوى ، والواقعات ، والرجوع إلى العلماء فى المهمات . فاشتغلوا بالنظر والاستدلال وتمهيد القواعد والأصول ووضع أسس البناء الذى تكون حول هذه المنازعات(١)



(١) الدكتور سليمان سليمان خميس توضيح العقائد النسفية ص ٨ ط دار نشر الثقافة .

علم الكلام

— إن اصطلاح « علم الكلام » قد أطلق على نظام خاص من الفكر، قام بين المسلمين قبل الترجمة وسابقاً على وجود الفلسفة وأسسها، وأصحاب هذا النظام « الفن » كانوا يسمون « متكلمين » فى مقابلة نوع آخر من المفكرين ، الذين ابتدؤا بالكندى، وعرفوا باسم «الفلاسفة» فاصطلاح علم الكلام ظهر بين المسلمين على وجه طبيعى حين ثار الجدال بين المسلمين حول مسائل العقيدة(١) .

ولا بد أن يدرك أهل العلم أن هناك فارقا بين الإسلام وبين الفكر الإسلامى . فالإسلام هو دين الله تعالى. المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ . ومصدر الإسلام هو الكتاب والسنة . أما الفكر الإسلامى فهو العمل العقلى للمسلمين فى فهم ما جاء فى الكتاب والسنة . ومن ثم فإن الإسلام لأنه يعتمد على وحى معصوم لا اختلاف ولا تناقض فيه . أما الفكر الإسلامى فهو يمكن أن يقع فيه الاختلاف حسب اجتهادات المجتهدين ، ومستوياتهم الفكرية(٢) .

وإن الباحث فى تطور الفكر الإسلامى الذى يمثل العمل العقلى للمسلمين يجد أن هذا الفكر مر فى مرحلتين :

المرحلة الأولى : وكانت فى ظهور نظام موحد من الاعتقاد، مأخوذ من تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية . وقد حكمت المرحلة الأولى بأناس أتقياء ورعين . كان همهم الإقتداء برسول الله ﷺ ، ونشر الدين(٣).

---

(١) الدكتور عبد العزيز سيف النصر ، فلسفة علم الكلام ص ٧، ٨ ط الجبلاوى

(٢) المصدر السابق ص ٨ بتصرف

(٣) الدكتور عبد العزيز سيف النصر فلسفة علم الكلام ص ٨

والمرحلة الثانية : كانت فى ظهور ما دار حول مسائل اعتقادية انتزعها العقل الإنسانى من واقع ملىء بالتساؤلات . وإذا كان وضح لنا أن هناك فرقاً بين الإسلام القائم على الكتاب والسنة ، وبين الفكر الإسلامى الذى هو العمل العقلى للمسلمين فى فهم ما جاء فى الكتاب والسنة . فإن الأمر يقتضى أن نعرف أن الإسلام يتكون من نوعين من التكاليف :

١ — التكاليف البدنية .

٢ — والتكاليف القلبية .

والتكاليف البدنية تتكون من التشريعات الإلهية التى تحكم جميع أفعال المسلمين . والعلم الذى يتناولها هو الفقه . ولهذا كان الفقه معرفة أفعال الله فى المكلفين بالوجوب والحذر والندب والكراهية والاباحة ، وهى متلقاه من الكتاب والسنة ، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة(١) .

أما التكاليف القلبية فهى العقائد التى تقررت فى الدين والتصديق بها فى القلوب ، والاعتقاد فى الأنفس مع الإقرار بالألسنة . وهذا هو الايمان فى الإسلام الذى يتكون من قواعد ست ، بينها النبى ﷺ فى حديثه حين سئل عن الايمان . فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره »(٢) ، وقد قرر ابن خلدون أن : « هذه هى العقائد الايمانية المقررة فى علم الكلام »(٣) .

وهكذا فإن علم الكلام يعنى بالإلهيات فى مقابلة الفقه ، والنقاش فى هذه العقائد الايمانية هو الذى كون علم الكلام كما قال ابن خلدون :

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٤٣٦

(٢) رواه الشيخان من حديث عمر

(٣) ابن خلدون المقدمة ص ٤٦٢

« وهذه هى العقائد الايمانية فى الذات، والصفات، وأمور الحشر، والنعيم، والعذاب، والقدر، والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام » (١).

وإذا كان الأمر — كما تبين لنا — فإن الفرق بين الإسلام القائم على الكتاب والسنة، وبين الفكر الإسلامى القائم على العمل العقلى للمسلمين ينتهى إلى علاقة وطيدة الصلة، صنع هذه العلاقة النقاش الذى دار حول العقائد الإيمانية.

فالسلف فى محاولتهم شرح قواعد الإيمان كانوا يستشهدون بآيات القرآن، وأحاديث من السنة. ولما حدثت الخلافات فى الرأى. وكانت هذه الخلافات تتعلق بتفاصيل القواعد الايمانية، وخاصة حول الآيات المتشابهات(٢) « فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام »(٣).

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٤٣٦

(٢) انظر الدكتور عبد العزيز سيف النصر، فلسفة علم الكلام ص ١١

(٣) ابن خلدون المقدمة ص ٤٦٣

تعريف علم الكلام

الكلام فى اللغة هو القول أو اللفظ الدال على معنى يحسن السكوت عليه . وواحد الكلام كلمة . هى اللفظ الذى يتألف من أصوات منطوقة على هيئة حروف وتشير إلى دلالة ومعنى(١) .

وقد وردت كلمة «الكلام» فى القرآن الكريم فى عدة مواضع، وفسرت بمعانى مختلفة :

— قال تعالى « قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى » (٢).

— وقال تعالى : « يريدون أن يبدلوا كلام الله »(٣).

— وقال تعالى: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله»(٤) .

ولفظ الكلام الوارد فى هذه الآيات لا يحتمل معنى زائداً على صورة الكلام المتلفظ بها . ولا يتضمن أى إشارة إلى المناقشة والجدل الدائر حول مسائل الاعتقاد .

---

(١) الدكتور محمد على أبو ريان تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ص ١٣١ ط دار المعرفة

(٢) سورة الأعراف الآية رقم ١٤٤

(٣) سورة الفتح : الآية ١٥

(٤) سورة التوبة : الآية ٦

وقد اتخذ الكلام معنى اصطلاحياً — فيما بعد — وتفرد بمنهج عقلى خاص استهدف الدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، وسميت الأقوال التى تصاغ كتابة أو شفاهاً على نمط منطق أو جدلى كلاماً ، ولا سيما تلك التى تعالج المسائل الاعتقادية(١) .

— وعلم الكلام هو : «العلم بأحكام الألوهية ، وإرسال الرسل ، صدقها فى كل أخبارها ، وما يتوقف شىء من ذلك عليه ، خاصاً به وتقرير أدلتها بقوة هى مظنة لرد الشبهات وحل الشكوك »(٢) .

فأنت ترى : أن هذا التعريف يتضمن العلم بأحكام الألوهية ، وإرسال الرسل ، وصدقهم فى كل ما يخبرون به ، ومنه أحكام المعاد ، وكذلك العلم بالشىء الذى تتوقف عليه أحكام الألوهية أو ثبوت إمكانه . اللذان يتوقف عليهما ثبوت بعض أحكام الألوهية كثبوت القدرة ، والإرادة مما كان دليله العقل وثبوته بعض أحكام الرسالة ، كثبوت صدق الرسل فى الأخبار الدالة على الأحكام الشرعية فإن ذلك متوقف على المعجزة المتوقفة على حدوث العالم(٣) .

ويذكر بعض العلماء : أن علم الكلام هو العلم بثبوت الألوهية والرسالة وما يتوقف معرفتهما عليه ، وجواز العالم وحدوثه ، وإبطال ما يناقض ذلك»(٤) .

---

(١) الدكتور محمد على أبو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ص ١٣١ ، ١٣٢

(٢) السنوسية الكبرى ص ٩٦

(٣) الدكتور عبد العزيز سيف النصر ، فلسفة علم الكلام ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٤) السنوسية الكبرى ص ٩٧ .

ويقول الغزالى : إنى ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علماً وافياً بمقصوده غير واف بمقصودي وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش البدعة . فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هى الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار . ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها . فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة(١) .

ويقول الفارابى : علم الكلام صناعة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التى صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل (٢) .

ويقول الإيجى : « إن علم الكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه» (٣) .

ويقول ابن خلدون : « علم الكلام هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة» (٤) .

---

(١) الغزالى المنقذ من الضلال ص٨٧ ، ٨٨ ط دار الكتاب اللبنانى .
(٢) الفارابى : إحصاء العلوم ص١٦ .
(٣) الايجي : المواقف جـ ١ ص ٣٢ .
(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠٣٥ تحقيق د/ علي وافي .

ويذكر الشيخ محمد عبده : أن علم الكلام هو علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن تثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه . وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم (١) .

ويتضح للباحث من هذه التعريفات أن المتكلم يبدأ من مسلمات عقائدية مقررة وضعها الشارع وهو — أى المتكلم — لايقدح فى صدقها بل يؤمن بها إيماناً كاملاً، وينحصر دوره فى الدفاع عنها بالأدلة العقلية والرد على مخالفيها ودحض شبهاتهم حولها (٢) .

ولا يخفى أن علم الكلام سمى بعلم الكلام بسبب أو أسباب :

— فإما أن تكون التسمية جاءت من باب تسمية الكل باسم الجزء فليست هناك صفة أثير حولها جدل ونزاع بين المتكلمين كما حدث فى صفة الكلام (٣) .

— أو أنه سمى بذلك لأن الباحثين الأول فى هذا العلم ، كانوا يترجمون لمسائله بقولهم : الكلام فى القدرة ، الكلام فى العلم ، الكلام فى الوحدانية، فشاع الكلام على هذا العلم وغلب عليه فالتسمية من باب الشيوع والذيوع والغلبة (٤) .

---

(١) محمد عبده رسالة التوحيد ص ٤ ط دار المعارف بمصر .

(٢) الدكتور محمد على أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٣) سليمان سليمان خميس : توضيح العقائد النسفية ص ٦ .

(٤) الدكتورة أمنة نصير : مباحث فى علوم العقيدة ص ٦٧ .

— أو سمى بذلك لأنه يكسب المتكلم قدرة على الكلام فى تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم .

— ولأنه أول ما يجب من العلوم التى تعلم وتتكلم بالكلام فأطلق عليه هذا الاسم . ولم يسم غيره به تمييزاً له .

— ويرى البعض أنه سمى بعلم الكلام باعتبار ما يتحقق به ذلك لأن مسائله إنما تتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين بخلاف غيره من العلوم فإنه يتحقق بالتأمل ومطالعة الكتب .

— ويرى البعض أنه سمى بعلم الكلام لأنه أكثر من غيره خلافاونزاعاً فهو مفتقر إلى الكلام أكثر من غيره للرد على المخالفين(١) .

— أو أنه سمى بذلك لقوة أدلته فصار كأنه هو الكلام دون ماعداه كما يقال للأقوى من الكلام هذا هو الكلام (٢) .

— أوأنه سمى بعلم الكلام لابتنائه على الأدلة القطعية المؤيدة فى كثير من الأحيان بالأدلة النقلية فكان أشد العلوم تأثيراً فى القلب وتغلغلا فيه فسمى بالكلام المشتق من الكلم — بفتح الكاف وسكون اللام — وهو الجرح (٣) .

— ويقول الدكتور مصطفى عبد الرازق : « ويبدو لى أن البحث فى

---

(١) سمان سليمان خميس : توضيح العقائد النسفية ص ٦ .

(٢) التفتزانى : شرح العقائد النسفية ص ١٩ ط كروستان العلمية ١٣٢٩ هـ .

(٣) انظر التفتازانى شرح العقائد النسفية ج ١ ص ١٩ وسليمان سليمان خميس توضيح العقائد النسفية ص ٧

أمور العقيدة كان يسمى كلاماً قبل تدوين هذا العلم . وكان يسمى أهل هذا البحث متكلمين . فلما دونت الدواوين وألفت فى هذه المسائل ، أطلق على هذا العلم المدون ما كان لقباً لهذه الأبحاث قبل تدوينها»(١) .

وإن الباحث فى أسماء علم الكلام يجد أن له أسماء أخرى غير اسم علم الكلام . وهذه الأسماء الأخرى نجملها فيما يأتى إتماماً للفائدة .

— علم التوحيد والصفات . وقد أطلقت هذه التسمية على هذا العلم لأن التوحيد والصفات أم مباحثه وأشرف مقاصده .

— علم أصـــول الدين وذلك باعتبار موضوعه وقضاياه التى يبحثها ومباحث العقيدة أصل لما تلاها من علوم الدين الأخرى كالتفسير والفقه والحديث . كما عللت هذه التسمية — علم أصول الدين — بأنه يبحث فى العقائد التى هى الأصول التى يجب على كل مكلف أن يعتقدها قبل أن يقدم على العمل . بل إن العمل لا ينفع فى الدار الآخرة بدون اعتقاد هذه المسائل العقدية .

— وسمى بالفقه الأكبر فى مقابل العلم الباحث فى الأحكام الفرعية المسمى بالفقه . وذلك لأنه الفقه فى الدين أما البحث فى الأحكام الشرعية العملية المسمى فى العرف بالفقه فهو فقه فى العلم ولاشك أن الفقه فى الدين أفضل من الفقه فى العلم ولذلك سمى هذا العلم بالفقه الأكبر، ويقول الإمام أبو حنيفة ، « الفقه فى الدين أفضل من الفقه فى العلم لأن الفقه فى الدين أصل والفقه فى العلوم فرع وفضل الأصل على الفرع معلوم»(٢) .

---

(١) الدكتور مصطفى عبد الرازق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٦٥

(٢) المصدر السابق

— ويسمى عند البعض بأنه علم « العقيدة » . وهذه التسمية أطلقت بناء على الثمرة المرجوة منه وهى انعقـــاد القلب انعقاداً جازما لا يقبل الانفكاك(٢) .

ويبدو أن التسمية لهذا العلم « بعلم الكلام » هى أشهر أسمائه . كما أنها أتم الأسماء وأشملها لما لها من الأسباب والاستيعاب . وقد أطلق هذه التسمية علماء الكلام أنفسهم . وقد بالغ المتكلمون فى الاعتداد بأنفسهم ، وأنهم وحدهم أصحاب الكلام ، مما أثار عليهم نقمة الكثيرين فى عصرهم . يقول يحي بن عدى مشيراً إلى طائفة المتكلمين : « إنى لأعجب كثيراً من قول أصحابنا إذا ضمنا وإياهم مجلس ، قولهم نحن المتكلمين، نحن أرباب الكلام والكلام بنا صح وانتشر كأن سائر الناس لا يتكلمون أو ليسوا أهل كلام لعلهم عند المتكلمين خرس أو سكوت »(٣).

ويذكر العلماء : أن علم الكلام لم ينشأ رغبة من المتكلمين فى الجدل والمراء ، وإنما نشأ دفاعا عن الدين ، ودرءاً للخطر ، الذى كان يزلزل قضايا الإسلام من نفوس المسلمين .

وعلم الكلام لم ينشأ نتيجة سبب بعينه ، وإنمـــا هو نتاج أسباب متضامنة ، وعوامل متضافرة، حلت بالبيئة الإسلامية ، واقتضت وجوده على الصورة التي نراه عليها فى تاريخ الفكر الإسلامى(١) .

---

(٢) الدكتور محمد عبد الستار نصار ، العقيـــدة الإسلامية أصولها وتأويلاتها ص ١٢

(٣) الدكتور محمد على أبو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ص ١٣٢

(١) الدكتور سامى عفيفى حجازي ، مدخل لدراسة علم الكلام ص ١٧ ط دار الطباعة المحمدية .

ولا يخفى أن كثيرين ممن دخلوا الاسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة يهودية ونصرانية ومجوسية وصابئة وبراهمة وغيرها . وقد أظهروا آراء دياناتهم القديمة فى ثوب دينهم الجديد(٢).

ولما انتهى المسلمون من الفتح الإسلامى أخذت تظهر أفكار مجانبة للصواب من أصحاب الديانات القديمة. مما أحدث اضطرابا وقلقا. ووسط هذا الاضطراب الفكرى والمبادىء التى كونتها كل فرقة لنفسها قام جماعة من المخلصين يشرحون عقائد المسلمين كما هى فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، ومن أشهرهم الحسن البصرى ثم كان الإمام أبو حنيفة وأتباعه(٣) .

وفى أواخر القرن الثالث ظهر أبو منصور الماتريدى، واشتغل بالرد على أصحاب العقائد الباطلة ، وتكونت منه ومن أتباعه فرقة الماتريدية .

وفى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع كان الإمام الطحاوى وأبو الحسن الأشعرى الذى أعلن انفصاله عن المعتزلة وقرر مبادئه الدينية التى صار اليها خيرة علماء المسلمين .

ومن هنا كانت جماعة أهل السنة التى توالى عليها علماء الإسلام كالإمام الجوينى والغزالى والفخر الرازى وعضد الدين الإيجى والبيضاوى وسعد الدين التفتازانى والسيد الشريف الجرجانى ثم علماء الأتراك وغيرهم إلى اليوم(١) .

والتأليف فى علم الكلام لم يكن على يد طائفة المعتزلة فحسب وعلم

---

(١) المصدر السابق ص١٨

(٢) دكتور سامى عفيفى حجازى ، مدخل لدراسة علم الكلام ص١٩٠

(٣) الدكتور على جبر ، مذكرة فى علم التوحيد ص ٢٠

الكلام الذى ذمه الشافعى وغيره من الأئمه ، إنما هو علم الكلام الحاوى لمذاهب المخالفين الذين أدخلوا فى قضايا الإسلام أشياء خالفت ما كان يعتقده المتقدمون من الصحابة والتابعين وجمهور الأمة وكانت كتبهم تحت لفظ علم الكلام(١) . ولذا يجدر بالإنسان أن يفرق بين علم الكلام الذى دخل فيه من الفلسفة ما لا يتفق والكتاب والسنة وبين علم الكلام المؤسس على الكتاب والسنة فى مسائله(٢) .

---

(١) المصدر السابق ص ٢١

(٢) الدكتور محمد يوسف موسى ، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص ٦٧

موضوع علم العقيدة

من المعروف لدى الباحثين والدارسين أن العلوم تتعدد بتعدد موضوعاتها والعلم يشتمل على مسائل متعددة تجمعها جهة واحدة . ذاتية هذه الجهة تسمى موضوع ذلك العلم .

« فموضوع كل علم مايبحث فيه عن عوارضه الذاتية كبدن الإنسان لعلم الطب فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الصحة والمرض ، وكالكلمات لعلم النحو ، فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء (١) » .

ولما كان علم العقيدة اتخذ معنى اصطلاحياً استهدف الدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية . وصار الكلام : العلم بأحكام الألوهية وإرسال الرسل . كان من المؤكد أن يكون موضوع علم العقيدة يدور حول قضايا العقائد الإيمانية بشكل عام ، وفى الدين الإسلامى بشكل خاص

وعلى هذا فموضوع علم العقيدة هو البحث حول القضايا الإيمانية فى العقيدة الإسلامية .

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم . إذ طلع رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ . فأسند ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه . وقال : يامحمد أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه .

---

(١) انظر الجرجانى ، التعريفات ، ص ٢٣٦ ط بيروت لبنان .

قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت .

قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل»(١) .

وهذا الحديث الشريف يتضمن الأصول الأساسية للعقيدة الإسلامية التي أوجب الإسلام على المسلمين الإيمان بها . والتي يمكن وضعها في المباحث التالية :

— مباحث الإلهيات : وهي معرفة الله تعالى وصفاته والإيمان بهما .

— ومباحث النبوات : وهي الإيمان برسل الله وملائكته وكتبه .

— ومباحث السمعيات : وهي معرفة البعث والحساب والجزاء والإيمان بها .

ولما كانت مباحث هذه الأصول متعددة ، فقد تعددت أقوال المتكلمين فيما يتعلق بموضوع علم العقيدة لدى المتقدمين والمتأخرين .

— فموضوع علم العقيدة لدى المتقدمين يشتمل على :

(أ) الإلهيات : ويقوم البحث فيها حول ما يتعلق بذات الله تعالى وصفاته وأفعاله .

(ب) النبوات : ويقوم البحث فيها حول النبوة والرسالة وصفات الأنبياء والرسل والمعجزات التي يظهرها الله تعالى على أيديهم تأييداً لهم من حيث أنهم الصفوة المختارة من خلق الله تعالى(٢) . يقول الشهرستاني

---

(١) رواه الشيخان البخاري ومسلم .

(٢) انظر الدكتور سامي عفيفي حجازي مدخل لدراسة علم الكلام ، ص ٤٠ ، ٤١ .

« والأنبياء خيرة الله فى خلقه ، وحجة الله على عباده والوسائل إليه ، وأبواب رحمته ، وأسباب نعمته . وكما يصطفيهم من الخلق قولا بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلا بكمال الفطرة ونقاء الجوهر ، وصفاء العنصر ، وطيب الأخلاق ، وكرم الأعراق ، فيرقيهم مرتبة مرتبة »(١) .

(ج) السمعيات : ويقوم البحث فيها حول القضايا التى لا تتلقى إلا من الشرع كالبعث والحشر والميزان والحوض والشفاعة والثواب والجنة والنار . وما إلى ذلك من أحوال الحياة الآخرة(٢) .

وهذا الإتجاه — كما ترى — يقرر موضوع علم العقيدة من خلال أصول الدين فيرى أنه ذات الله سبحانه وتعالى من حيث ما يجب له وما يستحيل وما يجوز ، والرسل من حيث ما يجب لهم وما يستحيل عليهم ، وما يجوز فى حقهم ، ثم السمعيات كالمعاد والحشر والحساب (٣) .

ويذكر البيضاوى أن موضوع علم التوحيد هو ذات الله تعالى ، وذوات المخلوقات ، لأنه يبحث عن صفات الله وأحوال المخلوقات من حيث أنها توصل إلى اليقين فيما يجب الإيمان به(٤) . وهو كل

---

(١) أبى الفتح الشهرستانى — نهاية الأقدام فى علم الكلام ص ٤٦٣ .

(٢) الدكتور سامى عفيفى حجازى — مدخل لدراسة علم الكلام ص ٤١ .

(٣) الدكتور محمد عبد الستار نصار — العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلاتها ص ٢٥ .

(٤) انظر التفتازانى — شرح المقاصد ج ١ ص ١٠ وراجع الشيخ مصطفى عبد الرازق التمهيد فى تاريخ الفلسفة ص ٢٦١ .

ما أخبر به الأنبياء عن الله تبارك تعالى(١).

— وهناك اتجاه عند بعض المتأخرين يقرر أصحابه : أن موضوع علم العقيدة أوسع من أن يحصر — فيما سبق بيانه لدى المتقدمين — لأن هناك كثيراً من المباحث قد تبدو غير وثيقة الصلة بدراسة العقيدة. ولكن التحقيق أثبت أنها لازمة وضرورة فى دراسة هذا العلم ٠ كدراسة أحوال الممكنات التى يتوصل بها إلى ضرورة الإيمان بوجود واجب الوجود(٢) إلخ . . يقول صاحب المواقف فى بيان موضوع هذا العلم : « وهو المعلوم من حيث ما يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريباً أو بعيداً » لأن مسائل هذا العلم : إما عقائد دينية كإثبات القدم والوحدة للصانع ، وإثبات الحدوث ، وصحة الإعادة للإجسام. وإما قضايا تتوقف عليها تلك العقائد كتركيب الأجسام من الجواهر الفردة ، وجواز الخلاء ، وكإنتفاء الحال ، وعدم تمايز المعدومات المحتاج إليها فى اعتقاد كون صفاته تعالى متعددة موجودة فى ذاته »(٣).

— كما يطلق موضوع علم العقيدة عند بعض المتأخرين من علماء العقيدة على أنه المعلوم من حيث ما يتعلق به إثبات العقائد الدينية . أى المعلومات .

∴ أى من حيث دلالتها على أن موجدها واجب الوجود .

∴ ومن حيث دلالتها على صفاته ونعوته الجلية .

∴ ومن حيث دلالتها على أفعاله الحكيمة .

---

(١) ، (٢) الدكتور محمد عبد الستار نصار — العقيدة الإسلامية ص٢٦.

(٣) الإيجى — المواقف ج ١ ص ٤٠ شرح الجرجانى

أى من حيث ما يعرض للمعلومات من وجوب واستحالة وجواز للتوصل بالتالى إلى واجب الوجود، وصفاته الجليلة، وأفعاله الحكيمة(١).

— وقيل موضوع علم العقيدة: الوجود من حيث هو موجود. وإنما يمتاز عن العلم الإلهى الباحث عن أحوال الوجود المطلق باعتبار الغاية، لأن البحث فى الكلام على قواعد الشرع، وفى الإلهى على مقتضى العقل.

— ويرى البعض أن موضوع علم العقيدة هو ماهيات الممكنات من حيث دلالتها على وجوب وجود موجدها وصفاته وأفعاله أى لا من حيث كونها جواهر وأعراضا(٢).

وعلى هذا وذاك يمكن أن يقال: أن تعدد الآراء فى موضوع علم العقيدة راجع إلى طبيعة المباحث والقضايا التى كان يتناولها هذا العلم فى العصور المختلفة.

---

(١) الدكتور مصطفى عمران — الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٣٢ من القسم الأول تحقيق ودراسة.

(٢) الدكتور عبد العزيز سيف النصر — فلسفة علم الكلام ص ٦٩.

تميز علم العقيدة

من المعروف لدى الباحثين : أن العلوم تتمايز بتمايز موضوعاتها ، فإذا وجدت علمين قد تميز أحدهما عن الآخر ، علمت أن لهذا موضوعا ، ولهذا موضوعاً ، وأن هذين الموضوعين متمايزان تمايزاً أدى إلى تميز هذين العلمين .

وعلم العقيدة كغيره من العلوم الأخرى ، له موضوعه الخاص الذى يميزه عن غيره .

هذا الموضوع الذى يمتاز به ذلك العلم عن غيره هو ذات الله ورسله من حيث ما يجب ، وما يستحيل ، وما يجوز . أو هو الموجود أو المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية(١) .

وإذا كان تميز علم العقيدة عن غيره من العلوم واضح . فإن هناك علمين قد يظن أنهما ليسا متميزين عنه .

هذان العلمان هما : الفقه ، وأصول الفقه ، ومنشأ هذا الظن هو أن كلا منهما يبحث فى الأحكام الشرعية ، كما أن علم العقيدة يبحث فيها أيضاً .

ولكن هذين العلمين متميزان أيضاً عن علم العقيدة ، ومتميز كل منهما عن الآخر ، لأن لكل منهما موضوعه الذى يميزه .

فموضوع علم الفقه : أعمال المكلفين من حيث بيان كيفيتها من وجوب وحرمة ، وكراهة ، وندب ، وإباحة(٢) .

---

(١) انظر سليمان سليمان خميس — توضيح العقائد النسفية ص٥ .

(٢) سليمان سليمان خميس — توضيح العقائد النسفية ص٦ .

وما قد يتوهم من أن موضوع الفقه أعم من العمل . لأن قولهم « الوقت سبب وجوب الصلاة من مسائله ، وليس الموضوع فيها عملا ولأن الفرائض « الميراث » من الفقه وموضوعه التركة ومستحقوها ولأن مسألة الصبي والمجنون من مسائله إلى غير ذلك من المسائل التي ليس موضوعها راجعاً إلى العمل .. ما قد يتوهم من ذلك مردود لأن تلك المسائل وأمثالها يرجع الموضوع فيها إلى العمل بتأويل فيقول ما ذكر هكذا : الصلاة تجب بسبب الوقت ، ومسألة الصبي والمجنون ترجع إلى فعل الولي ، وموضوع الفرائض ينبغي أن يكون قسمة التركة(١) .

فموضوع علم الفقه : أعمال المكلفين من حيث بيان كيفيتها من وجوب وحرمة وندب وإباحة .

أما موضوع أصول الفقه : فهو استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة السمعية . فعلم الفقه يقول مثلا : الصلاة واجبة . والدليل على وجوبها قول الله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »(٢) . لكنه لا يعرفنا كيف استنبط حكم الوجوب ، أما علم أصول الفقه فإنه يقول لنا مثلا : الصلاة واجبة، لأن الله قال لنا « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة(٣). والحكم صدر على سبيل الأمر والأمر يفيد الوجوب . فالفقه بين الحكم فقط . وعلم أصول الفقه بين كيفية استنباط الحكم . ولا شك أن بيان الأحكام العملية ، وبيان كيفية استنباطها تختلف تمام الاختلاف عن الحديث عن عقيدة الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر : وما فيه من ثواب وعقاب . الذي هو موضوع علم العقيدة ، ولذلك سمى الإمام

(١) المصدر السابق ص ٦
(٢ ، ٣) سورة البقرة الآية ٤٤

أبو حنيفة الكلام بأنه الفقه الأكبر مقابل علم الأحكام العملية المسمى بعلم الفقه الأصغر(١).

أما علم الكلام « فإنه باب من الاعتبار فى أصول الدين يدور النظر فيه على محض العقل فى التحسين والتقبيح، والإحالة، والتصحيح، والإيجاب، والتجويز، والاقتدار، والتعديل، والتجوير، والتوحيد، والتفكير.

والاعتبار فيه ينقسم بين دقيق ينفرد به العقل، وبين جليل يفزع إلى كتاب الله تعالى. ثم التفاوت فى ذلك بين المتحلين به على مقاديرهم فى البحث، والتنقيب والفكر، والتجبير، والجدل والمناظرة، والبيان، والمناضلة والظفر بينهم بالحق سجال، ولهم عليه مكر ومجال. وبابه مجاور لباب الفقه والكلام فيهما مشترك. وإن كان بينهما انفصال وتباين. فإن الشركة بينهما واقعة، والأدلة فيهما متضارعة، ألا ترى أن الباحث عن العالم فى قدمه وحدثه وامتداده وانقراضه يشاور العقل، ويستخدمه، ويستضىء به، ويستفهمه »(٢).

ويختلف علم الكلام عن الفلسفة فى أن الكلام خاص بدين معين فهو جدل يدور حول أصول دين بعينه. ولكن الفلسفة تبحث عن الحقيقة على وجه العموم.

ومن حيث المنهج نجد أن الكلام يبدأ من مسلمات عقائدية يفترض

---

(١) انظر الدكتورة أمنة نصير — مباحث فى علوم العقيدة ص ٦٩

(٢) مصطفى عبد الرازق — التمهيد ص ٢٥٨، ٢٥٩

وانظر أبو حيان التوحيدى — ثمرات العلوم المطبوع مع كتاب الأدب والإنشاء فى الصداقة والصديق ط ١٣٢٣ هـ المطبعة الشرقية بمصر ص ١٩٢

صحتها أى أن المتكلم يبدأ من قاعدة معترف ثم يتلمس الطرق التى تؤدى إلى إثبات هذه القاعدة ، أما الفيلسوف فإنه يبدأ من درجة الصفر أى من قواعد المنطق الأساسية والمقدمات البديهية ، ويتدرج منها إلى النتائج مستخدما منهجا عقلياً صرفا .

فمثلا يسلم المتكلم بوجود الله ووحدانيته . ولكنه يحاول إقامة الأدلة على وجوده لمواجهة الخصوم والدفاع عن العقيدة . أما الفيلسوف فإنه لا يسلم بأى شيء عند البداية ، ويحاول البرهنة على وجود الله ، فهو قبل إقامة الدليل على وجوده لم يكن يسلم بهذا الوجود أصلا(١)

(١) الدكتور محمد على أبو ريان ـ تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ص ١٣٤

فائدة علم العقيدة وغايته وأهميته

لما كانت قضايا علم العقيدة تدور حول معرفة الله تعالى، وما يجب في حقه، وما يجوز، وما يستحيل عليه. وأيضا في حق الرسل بالأدلة اليقينية، كان لا بد من الإلمام بقضايا هذا العلم المشتمل على جليل الكلام ودقيقه. والإلمام بتلك القضايا يخرج الباحث من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان، وإرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة لهم، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم، وحفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين.

كذلك يبنى على علم العقيدة ما عداه من العلوم الشرعية، فإنه أساسها وإليه يؤول أخذها واقتباسها. فإنه ما لم يثبت وجود صانع عالم، قادر، مكلف، مرسل للرسل، منزل للكتب لم يتصور علم تفسير، ولا علم فقه، وأصوله. فكلها متوقفة على علم العقيدة، مقتبسة منه، فالآخذ فيها بدونه كبان على غير أساس، وغاية هذه الأمور كلها الفوز بسعادة الدارين(١).

يقول الشيخ محمد البيجوري: «وثمرته — أي علم العقيدة — معرفة الله بالبراهين القطعية، والفوز بالسعادة الأبدية»(٢).

وهذا الكلام — على إيجازه — يحمل معاني كثيرة: فمعرفة الله

---

(١) الدكتور عبد الرحمن بدوى — مذاهب الإسلاميين جـ١ ص ١١ ط دار العلم للملايين، وانظر الدكتور سامي عفيفي حجازى — مدخل لدراسة علم الكلام.

(٢) إبراهيم البيجورى — تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص٩

بالبراهين القطعية التى تفيد اليقين دونها جهود ينبغى أن تبذل ممن يريد . بالتأمل ، والتفكر ، والاعتبار فى النفس والآفاق . والمعرفة أوسع من أن تحصر فى إثبات الوجود لله تعالى ، بل تشمل الواجبات والممكنات ، والمستحيلات فى حقه ، وفى حق من يختارهم لتبليغ رسالته . وفى نفس الوقت تؤدى معرفة الله على هذا الشكل إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه ، وبالكتب التى أنزلها على رسله(١) .

وعلى هذا يتضح أن فائدة هـذا العلم إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية التفصيلية ، أو دفع شبه المعارضين لها أيضا بواسطة الأدلة العقلية التى تدحض حجج الخصم وتدفع شبهه .

وإن الباحث فى كتاب المواقف للإيجى يجد أن الإيجى قد ذكر فوائد علم العقيدة فى أمور نجملها فيما يلى :

— الأمر الأول : الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات»(٢) . خص العلماء الموقنين بالذكر مع اندراجهم فى المؤمنين ، رفعاً لمنزلتهم ، كأنه قال : وخصوصاً هؤلاء الأعلام منكم .

— الأمر الثانى : إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة لهم إلى عقائد الدين وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم .

---

(١) الدكتور محمد عبد الستار نصار — العقيدة الإسلامية ص ٢٧ ، ٢٨

(٢) سورة المجادلة ، الآية رقم ١١

— الأمر الثالث : حفظ قواعد الدين أن تزلزلها شبه المبطلين .

— الأمر الرابع : أن يبنى عليه العلوم الشرعية الفرعية ، فإنه أساسها وإليه يؤول أخذها واقتباسها .

— الأمر الخامس : صحة النية فى الأعمال وصحة الاعتقادات(١) .

وأن المتأمل فيما ذكره صاحب المواقف فى فوائد علم العقيدة يلاحظ أن هذه الفوائد :

إما راجعة إلى الشخص الدارس للعلم بإخراجه من التقليد إلى اليقين، وتصحيح نيته وعقيدته .

وأما راجعة إلى غير الدارس، فإن كان مسترشداً فقد أعانه هذا العلم بإيضاح الطريق أمامه ، وإن كان معانداً فقد ألزمه بالحجة والبرهان .

كما ترجع الفوائد أيضاً إلى تثبيت قواعد الدين بدرء الشبهات والأباطيل فكأنها والحالة ذات ثلاث جهات : جهة راجعة إلى الشخص نفسه ، وجهة راجعة إلى غيره ، وجهة ثالثة راجعة إلى قواعد الدين نفسها(٢) .

وقد أورد صاحب المقاصد فائدة دنيوية لهذا العلم فقال : « ومنفعته فى الدنيا انتظام أمر المعاش على وجه لا يؤدى إلى الفساد، وأما فى الآخرة فهى النجاة من العذاب المرتب على الكفر وسوء الاعتقاد(٣) .

---

(١) الإيجى ، المواقف جـ١ ص٥١ ، ٥٢

(٢) انظر الدكتور محمد عبد الستار نصار العقيدة الإسلامية ص٢٨، ٢٩ والدكتور سامى عفيفى حجازى مدخل لدراسة علم الكلام ص٤٧

(٣) التفتازانى المقاصد جـ١١ ط الحلبى .

ولعل الفائدة الدنيوية المذكورة هنا — كما يقول الدكتور نصار — متعلقة بأن الإنسان متى تيقن من أصول دينه ، بنى عليها سلوكه مع الله ومع غيره ، فتستقر الحياة ، ويزول الاضطراب ، وهنا يظهر ما لهذا العلم من أثر فى الدنيا والآخرة على السواء(١).

والغاية التى وراء كل غاية إنما هى تحصيل السعادتين الدنيوية والأبدية كنتيجة طبيعية لتحصيل الإعتقادات الحقة والإدراكات المطابقة التى يجنيها بنو البشر إن شاء الله تعالى من دراستهم لعلم العقيدة(٢) .

أما إذا أردنا أن نقف على أهمية «علم العقيدة» فيحسن بنا أن نرجع إلى الغزالى فى كتابه «الاقتصاد فى الاعتقاد» فقد ذكر تمهيدات فى الكتاب، جاءت تبرز أهمية علم العقيدة فى حياة الناس ولنذكر هذه التمهيدات، تمهيداً تمهيداً ، حتى يتبين لنا الطريق .

التمهيد الأول : فى بيان أن الخوض فى هذا العلم مهم فى الدين : اعلم أن صرف الهمة إلى ما ليس بمهم وتضييع الزمان بما عنه بد هو غاية الضلال، ونهاية الخسران، سواء كان المنصرف إليه بالمهمة من العلوم، أو من الأعمال فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وأهم الأمور لكافة الخلق نيل السعادة الأبدية، واجتناب الشقاوة الدائمة .

وقد ورد الأنبياء وأخبروا الخلق بأن لله تعالى على عباده حقوقا ووظائف على أفعالهم وأقوالهم وعقائدهم، وأن من لم ينطق بالصدق لسانه، ولم ينطو على الحق ضميره ، ولم تتزين بالعدل جوارحه ، فمصيره إلى النار ، وعاقبته البوار .

---

(١) الدكتور محمد عبد الستار نصار العقيدة الإسلامية ص ٩

(٢) الدكتور سامى عفيفى حجازى مدخل لدراسة علم الكلام ص ٤٨

ثم لم يقتصر على مجرد الأخبار ، بل استشهدوا على صدقهم بأمور غريبة ، وأفعال عجيبة ، خارقة للعادات ، خارجة عن مقدورات البشر ، فمن شاهدها ، أوسمع أحوالها بالأخبار المتواترة ، سبق إلى عقله إمكان صدقهم ، بل غلب على ظنه ذلك ، بأول السماع قبل أن يمعن النظر ، فى تمييز المعجزات من عجائب الصناعات ...

وهذا الظن البديهى أو التجويز الضرورى ، ينزع الطمأنينة من القلب ويحشوه بالاستشعار بالخوف ، ويهيجه للبحث والافتكار ، ويسلب عنه الدعة والقرار ، ويحذره مغبة التساهل والاهمال ، ويقرر عنده أن الموت آت لامحالة ، وأن مابعد الموت منطو عن أبصار الخلق ، وأن ما أخبر به هؤلاء غير خارج عن حيز الإنكار ، فالحزم ترك التوانى ، والكشف عن حقيقة الأمر ...

فما هؤلاء مع العجائب التى أظهروها فى إمكان صدقهم — قبل البحث عن تحقيق قولهم — بأقل من شخص واحد ، يخبرنا عند خروجنا من دارنا ، ومحل استقرارنا ، بأن سبعاً من السباع قد دخل الدار فخذ حذرك واحترز منه لنفسك جهدك ، فأنا بمجرد السماع إذا رأينا ما أخبرنا عنه فى محل الإمكان والجواز ، لم نقدم على الدخول ، وبالغنا فى الاحتراز فالموت هو المستقر والموطن قطعاً ، فكيف لا يكون الاحتراز لما بعده مهما؟

فإذن أهم المهمات : أن نبحث عن قوله الذى قضى الذهن فى بادىء الرأى ، وسابق النظر بإمكانه ، أهو محال فى نفسه على التحقيق . أو هو حق لاشك فيه؟ فمن قوله : إن لكم رباً ، كلفكم حقوقاً ، وهو يعاقبكم على تركها ، ويثيبكم على فعلها وقد بعثنى رسولا إليكم ، لأبين لكم ذلك ، فيلزمنا — لامحالة — أن نعرف أن لنا رباً أم لا ؟

وإن كان فهل يمكن أن يكون حياً متكلما ، حتى يأمر وينهى ويكلف ويبعث الرسل ؟ وإن كان متكلما ، فهل هو قادر على أن يعاقب ويثيب ، إذا عصيناه ، أو أطعناه ؟ وإن كان قادراً فهل هذا الشخص بعينه صادق فى قوله : أنا الرسول إليكم ؟

فإن اتضح لنا ذلك ، لزمنا لا محالة ، إن كنا عقلاء أن نأخذ حذرنا ، وننظر لأنفسنا ، ونستحقر هذه الدنيا المنقرضة ، بالإضافة إلى الآخرة الباقية ، فالعاقل من ينظر لعاقبته ، ولا يغتر بعاجلته .

ومقصود هذا العلم : إقامة البرهان على وجود الرب تعالى وصفاته وأفعاله ، وصدق الرسل ... كل ذلك مهم لا محيص عنه لعاقل »(١) .

وجملة ما يقال : أن الغزالى ضمن هذا التمهيد بيان أهمية الاشتغال بعلم العقيدة ، وأنه إسلام الوجه لله تعالى ، وأن إسلام الوجه لله هو التوحيد والتوحيد هو الذى يوصل الإنسان إلى معرفة الخالق ، كما يوصله إلى الوقوف على الأدلة التى يعرف بها صدق الرسل وما جاءوا به ، والرسل حملة الدين ودعاته وهداته .

ومن هنا كان علينا أن نبحث عن حقيقة ما أخبرت به الرسل ؟ وكل هذا معرفته ضرورية لبنى البشر الأمر الذى من أجله كان الاشتغال به من المهمات فى قضايا الدين ، وبه تحصل السعادة فى الدنيا والآخرة(٢) .

---

(١) الإمام الغزالى ، الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٧

(٢) انظر الدكتور سامى عفيفى حجازى الاقتصاد فى الاعتقاد للإمام الغزالى ص ٣٣ ط دار الطباعة المحمدية ١٤٠٩ هـ

التمهيد الثانى : فى الخوض فى هذا العلم ، وإن كان مهما ، فهو حق بعض الخلق ليس بمهم ، بل المهم لهم تركه .

« اعلم أن الأدلة التى نحررها فى هذا العلم ، تجرى مجرى الأدوية التى يعالج بها مرضى القلوب ، والطبيب المستعمل لها إن لم يكن حاذقا ، ثاقب الفكر ، رصين الرأى ، كان مايفسده بدوائه ، أكثر مما يصلحه ، فليعلم المحصل لمضمون هذا الكتاب ، والمستفيد لهذه العلوم أن الناس أربع فرق :

الفرقة الأولى : طائفة آمنت بالله ، وصدقت رسوله ، واعتقدت الحق وأضمرته ، واشتغلت إما : بعبادة ، وإما بصناعة ، فهؤلاء ينبغى أن يتركوا وما هم عليه ، ولا تحرك عقائدهم ، باستحثاث على تعلم هذا العلم ، فإن صاحب الشرع — صلوات الله عليه — لم يطالب العرب فى مخاطبته إياهم بأكثر من التصديق ، ولم يفرق أن يكون ذلك بإيمان وعقد تقليدى ، أو بيقين برهانى .

وهذا مما علم ضرورة من مجارى أحواله ، فى تزكيته إيمان من سبق من أجلاف العرب ، إلى تصديقه ، بدون بحث أو برهان ، بل بمجرد قرينة ، ومخيلة سبقت إلى قلوبهم ، فقادتها إلى الإذعان للحق والانقياد للصدق ... فهؤلاء مؤمنون حقاً ، فلا ينبغى أن تشوش عليهم عقائدهم ، فإنهم إذا تليت عليهم هذه البراهين ، وما عليها من الإشكالات وحلها ، لم يؤمن أن تعلق بأفهامهم مشكلة من المشكلات ، وتستولى عليها ، ولا تمحى عنها ، بما يذكر من طرق الحل ، ولهذا لم ينقل عن الصحابة الخوض فى هذا الفن ، لا بمباحثة ، ولا بتدريس ، ولا تصنيف ، بل كان شغلهم بالعبادة والدعوة إليها ، وحمل الخلق على مراشدهم ، ومصالحهم فى أحوالهم وأعمالهم ومعاشهم فقط .

الفرقة الثانية : طائفة مالت عن اعتقاد الحق ، كالكفرة والمبتدعة «

فالجافى الغليظ منهم ، الضعيف العقل ، الجامد على التقليد ، الممترى بالباطل من مبتدأ النشوء ، إلى كبر السن ، لا ينفع معه إلا السوط والسيف ، فأكثر الكفرة أسلموا تحت ظلال السيوف إذ يفعل الله بالسيف والسنان ما لا يفعل بالبرهان واللسان ، وعن هذا إذا استقرأت تواريخ الأخبار لم تصادف ملحمة بين المسلمين والكفار ، إلا انكشفت عن جماعة من أهل الضلال ، مالوا إلى الانقياد ، ولم تصادف مجمع مناظرة ومجادلة انكشفت إلا عن زيادة إصرار وعناد .

ولا تظن أن الذى ذكرناه غض من منصب العقل وبرهانه ، ولكن نور العقل كرامة ، لا يخص الله بها إلا الآحاد من أوليائه والغالب على الخلق القصور والاهمال ، فهم بقصورهم لا يدركون براهين العقول ، كما لا يدرك نور الشمس أبصار الخفافيش ، فهؤلاء تضر بهم العلوم كما تضر رياح الورد بالجعل ، وفى مثل هؤلاء قال الإمام الشافعى رحمه الله :

فمن منح الجهال علما أضاعه
ومن منع المستوجبين فقد ظلم

الفرقة الثالثة : طائفة اعتقدوا الحق تقليداً أو سماعاً ، ولكن خصوا فى الفطرة بذكاء وفطنة ، فتنبهوا من أنفسهم لاشكالات تشككهم فى عقائدهم ، وزلزلت عليهم طمأنينتهم ، أو قرع سمعهم شبهة من الشبهات ، وحاكت فى صدورهم ، فهؤلاء يجب التلطف فى معالجتهم ، بإعادة طمأنينتهم وإماطة شكوكهم بما أمكن من الكلام المقنع المقبول عندهم ، ولو بمجرد استبعاد وتقبيح ، أو تلاوة آية ، أو رواية حديث ، أو نقل كلام من شخص مشهور عندهم بالفضل ، فإذا زال شكه بذلك القدر فلا ينبغى أن يشافه بالأدلة المحررة ، على مراسم الجدل ، فان ذلك ربما يفتح عليه أبواباً أخرى من الاشكالات ، فإذا كان ذكيا فطناً ، لم يقنعه إلا كلام

يسير على محك التحقيق ، فعند ذلك يجوز أن يشافه بالدليل الحقيق ، وذلك على حسب الحاجة ، وفى موقع الاشكال على الخصوص .

الفرقة الرابعة : طائفة من أهل الضلال ، يتفرس فيهم مخائل الذكاء والفطنة ، ويتوقع منهم قبول الحق ، لما اعتراهم فى عقائدهم من الريبة أو بما يلين قلوبهم لقبول التشكيك ، بالجبلة والفطرة ، فهؤلاء يجب التلطف بهم ، فى استمالتهم إلى الحق ، وارشادهم إلى الاعتقاد الصحيح ، لا فى معرض الحاجة والتعصب ، فإن ذلك يزيد فى دواعى الضلال ، ويهيج بواعث التمادى والاصرار .

وأكثر الجهلات إنما رسخت فى قلوب العوام ، بتعصب جماعة من جهال الحق ، أظهروا الحق فى معرض التحدى والإجلال ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء ، فثارت من بواطنهم ، دواعى المعاندة ، والمخالفة ، ورسخت فى نفوسهم الاعتقادات الباطلة ، وعسر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها ، حتى انتهى التعصب بطائفة إلى أن اعتقدوا أن الحروف التى نظروا بها فى الحال بعد السكوت عنها طول العمر قديمة ، ولولا استيلاء الشيطان ، بواسطة العناد والتعصب للأهواء ، لما وجد مثل هذا الاعتقاد مستقراً فى قلب مجنون ، فضلا عمن له قلب عاقل ، والمجادلة والعناد ، داء محض لا دواء له ، فليتحرز المتدين منه جهده ، وليترك الحقد والضغينة ، ولينظر إلى كافة خلق الله بعين الرحمة ، وليستعن بالرفق واللطف فى ارشاد من ضل فى هذه الأمة ، وليتحفظ من النكد الذى يحرم داعية الضلال ، وليتحقق أن مهيج داعية الاصرار بالعناد والتعصب معين على الاصرار على البدعة ، ومطالب بعهدة اعانته فى القيامة(١) .

---

(١) الإمام الغزالى ، الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٩

والخلاصة من هذا التمهيد : أن الاشتغال بعلم التوحيد من المهمات فى الدين وأن هذا العلم ليس علماً لجميع بنى البشر . بل لخاصتهم إذ الخوض فى هذا العلم وإن كان مهماً فهو فى حق البعض ليس بمهم ، بل المهم لهم تركه . وذلك لأن أدلة هذا العلم مثلها مثل الدواء الذى يقرره الطبيب للمريض . فعلم الكلام يشبه الدواء لأنه يعالج به مرضى العقائد .

وهناك من الناس من لا يجوز لهم الاشتغال بهذا العلم كما لا يجوز للباحث أن يشغلهم به ، لما قد يشوش عليهم عقيدتهم(١)

التمهيد الثالث : فى بيان أن الاشتغال بهذا العلم من فروض الكفايات:
اعلم أن التبحر فى هذا العلم ، والاشتغال بمجامعه ليس من فروض الأعيان وهو من فروض الكفايات . فأما أنه ليس من فروض الأعيان فقد اتضح برهانه فى التمهيد الثانى . إذ تبين أنه ليس يجب على كافة الخلق إلا التصديق الجازم . وتطهير القلب عن الريب والشك فى الإيمان ، وإنما تعتبر إزالة الشك فرض عين فى حق من اعتراه الشك .

فإن قلت : فلم صار من فروض الكفايات ، وقد ذكرت أن أكثر الفرق يضرهم ذلك ولا ينفعهم ؟ فاعلم أنه قد سبق أن إزالة الشكوك فى أصول العقائد واجبة ، واعتوار الشك غير مستحيل ، وإن كان لا يقع إلا فى الأقل . ثم الدعوة إلى الحق بالبرهان مهمة فى الدين ، ثم لا يبعد أن يثور مبتدع . ويتصدى لإغواء أهل الحق بإضافة الشبهة فيهم ، فلابد ممن يقاوم شبهته بالكشف ، ويعارض اغواءه بالتقبيح ، ولا يمكن ذلك إلا بهذا العلم ، ولا تنفك البلاد عن أمثال هذه الوقائع ، فوجب أن يكون فى كل قطر من الأقطار ، وصقع من الأصقاع ، قائم بالحق ، مشتغل بهذا العلم يقاوم دعاة المبتدعة ، ويستميل المائلين عن الحق . ويصفى قلوب أهل

---

(١) انظر الدكتور سامى عفيفى حجازى الاقتصاد فى الاعتقاد ص٣٨

"Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)"

الـسنه عن عوارض الشبهة ، فلو خلا عنهم قطر . خرج به أهل القطر كافة ، كما لو خلا عن الطبيب والفقيه . نعم . من أنس من نفسه تعلم الفقه أو الكلام خلا الصقع عن القائم . بهما ولم يتسع زمانه للجمع بينهما ، واستغنى فى تعيين مايشتغل به منهما ، أوجبنا عليه الاشتغال بالفقه ، فإن الحاجة إليه أعم : والوقائع فيه أكثر . فلا يستغنى أحد فى ليله ونهاره عن الاستعانة بالفقه ، واعتوار الشكوك المحوجة إلى علم الكلام باد بالإضافة إليه .

كما أنه لو خلا البلد عن الطبيب والفقيه ، كان التشاغل بالفقه أهم . لأنه يشترك فى الحاجة إليه الجماهير والدهماء ، وأما الطب فلا يحتاج إليه الأصحاء ، والمرضى أقل عدداً بالإضافة إليهم .

ثم المريض لا يستغنى عن الفقه ، كما لا يستغنى عن الطب وحاجته إلى الطب لحياته الفانية ، وإلى الفقه لحياته الباقية ، وشتان بين الحالتين — فإذا نسبت ثمرة الطب إلى ثمرة الفقه . علمت مابين الثمرتين .

ويدلك على أن الفقه أهم العلوم ، اشتغال الصحابة رضى الله عنهم بالبحث عنه فى مشاوراتهم ومفاوضاتهم ، ولا يغرنك مايهول به من يعظم صنعة الكلام من أنه الأصل ، والفقه فرع له فإنها كلمة حق ولكنها غير نافعة فى هذا المقام فإن الأصل هو الاعتقاد الصحيح ، والتصديق الجزم وذلك حاصل بالتقليد . والحاجة إلى البرهان ودقائق الجدل نادرة والطبيب أيضاً قد يلبس فيقول : وجودك ثم وجود بدنك موقوف على صناعتى وحياتك منوطة بى فالحياة والصحة أولا ، ثم الاشتغال بالدين ثانيا — ولكن لا يخفى ماتحت هذا الكلام من التمويه وقد نبهنا عليه)(١).

لقد أفاد الإمام الغزالى فى هذا التمهيد . أن دراسة علم الكلام ومعرفة

---

(١) الغزالى، الاقتصاد فى الاعتقاد

أدلته والاشتغال بقضاياه ليس فرض عين وإنما ذلك من فروض الكفايات لأن المطلوب هو الإيمان الصادق وطهارة القلوب من الشك والاعتقاد الجازم .

وإنما يصير هذا التعلم فرض عين بالنسبة لمن وقع فى الشك فيلزمه إزالته

أما كونه فرض كفاية فإننا نجد فى كل زمان من يشكك بنى البشر فى عقائدهم ويشوش عليهم إيمانهم .

وفى مثل هذه الحالات لابد من التصدى لهذه التيارات المغرضة والقضاء على بدع الضالين .

وهذا لا يتأتى إلا ممن تخصص فى هذا العلم وجمع قضاياه ووقف على براهينه(١)

وكلام الغزالى أولى بالقبول ـ كما يذكر العلماء ـ لأنه لا يمكن أن يستبطن كل الناس أسرار هذا العلم . وهناك فرق بين تحصيل أصول العقيدة الذى هو مطلب كل معتقد على قدر استعداده وبين أن يتفقه فريق هذه الأصول بقدر يؤهلهم لتثبيتها فى نفس المسترشد وإزالة الشكوك والأوهام التى تعترضه ، ودفع الشبهات التى يثيرها الخصم ، فهذا لا يتكفل به إلا من تؤهله مواهبه لذلك .

ونحسب أن قول الله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »(٢) عام لكل

---

(١) د / سامى عفيفى حجازى الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٤٨ ـ ٥٠

(٢) سورة التوبة الآية رقم ١٢٢

أمور الدين : أصولها وفروعها . وبيان لحكم التفقه فيه أصلا كان أو فرعاً كذلك(١)

ومهمة علم العقيدة قائمة فى إطار تفاعل العقل مع الوحى بما يعطى لكل منهما قدره ، فى تأصيل العقيدة، فى القلب وتمكنها منه وجريانها فى وجدان صاحبها مجرى يستحيل منه انفكاكها عنه مهما كثرت الشبهات وتسلحت الأباطيل بالأدلة(٢)

ويبدو أن النظر فى مهمة علم الكلام قد اختلفت فى القرون الأربعة الأولى عنه فيما تلا ذلك .

ففى المرحلة الأولى غلب النظر إلى علم الكلام على أنه علم تحصيلى وليس مجرد دفاع .

ثم تحول بعد ذلك إلى علم دفاع عن عقائد الإسلام .

---

(١) انظر الدكتور محمد عبد الستار نصار العقيدة الإسلامية صـ٣٥

(٢) المصدر السابق صـ٣٦

نشأة علم العقيدة

إن الباحث بعمق . والمتأمل فى الأحداث التى جاءت بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، والمتفرس فى أحوال المسلمين أعماقا وأبعاداً يجد أن لنشأة علم العقيدة عوامل كثيرة نبين أهمها فيما يلى :

أولا : لاشك فى أن نشأة علم العقيدة والتوحيد والكلام نشأة إسلامية ولذا استمد مادته من النقل والعقل معاً ، وتصدى للدفاع عن العقائد الإسلامية .

ثانياً : لقد فتح المسلمون بلاداً ذات ثقافات عريقة مثل فارس والشام ومصر . وكان الفرس يؤمنون بالزرادشتية والمانويه والمزدكية كما انتشرت اليهودية والنصرانية فى الشام ومصر .

وعندما أحست هذه الشعوب المغلوبة بعجزها عن مقاومة جيوش المسلمين انبرى مثقفوها ليشنوا حملة ثقافية مضادة على العقيدة الإسلامية للتشكيك فيها مستهدفين إضعاف الروح الإسلامية وتفتيت وحدة المسلمين .

ولما كانت الفلسفة اليونانية وأساليب المنطق اليونانى قد ذاعت وانتشرت فى هذه المنطقة قبل ظهور الإسلام فقد كان على الدين اليهودى أن يواجه قضاياها فى مرحلة مبكرة ، ولم يلبث أن تأثر بها ، وكان ذلك واضحاً فى التفسير الرمزى للتوراة على يد « فيلون السكندرى » ،

ثم جاءت المسيحية وظهرت حركة علماء الكلام المسيحى . وتسلح هؤلاء المدافعون عن الدين بالمنطق اليونانى وبالفلسفة اليونانية . ولا سيما بالأفلاطونية الحدثة : وظهر الجدل بينهم حول الله وصفاته والنبوة والوحى

وحرية الإرادة وعبادة الأيقونة والثالوث الأقدس وسر التجسد وطبيعة المسيح . وانقسم المسيحيون بصدد هذه المسائل إلى يعاقبة ونساطرة وملكانيين .

وحينما احتك المسلمون بالمسيحيين الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم وبأصحاب المقالات من الملحدين والزنادقة والثنوية اضطروا إلى التسلح بالفلسفة وبالمنطق الأرسطى لمواجهة هؤلاء الخصوم الذين حذقوا فن الجدل الدينى فكان هذا سبباً كافياً لنشأة علم الكلام(١) .

وقد تمثلت المعارضة المسيحية العنيفة للإسلام على عهد الأمويين فى رجال تعمقوا فى دراسة اللاهوت المسيحى من أمثال الأسقف يوحنا الدمشقى طبيب يزيد الأموى ، وكان هـــذا الأسقف يرتب الكتب فى مهاجمة الإسلام على طريقة السؤال والجواب (٢) .

ثالثاً : من العوامل التى أسهمت فى نشأة علم الكلام الخلافات السياسية حول الإمامة . والخلافات حول الإمامة أدت إلى ظهـــور فرق دينية تتجادل حول العقيدة الإسلامية .

رابعاً : الآيات المتشابهات أدت إلى ظهور أسلوب التأويل الذى استخدمته الفرق الإسلامية للتدليل على صحة مواقفها . ويعد ابن خلدون الآيات المتشابهات الأصل فى نشأة علم الكلام ويرجع البحث فى ذات الله وصفاته ورؤيته سواء بالقلب أو بالبصيرة وكذلك كلام الله من حيث كونه قديماً أو مخلوقا ومسائل التوحيد بصفة عامة . يرجع هـذا كله إلى ما دار من جدال حول تفسير الآيات المتشابهات(٣) .

---

(١) دكتور محمد على أبو ريان تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ص١٣٨

(٢) المصدر السابق ص١٣٩ بتصرف

(٣) المصدر السابق ص ١٤٠ ، ١٤١

علم العقيدة بين المؤيدين والمعارضين.

من المعروف أن المسلمين قد انقسموا حول علم الكلام إلى فريقين :

أحدهما : يناصره ، ويبرز الدور الذى قام به فى الدفاع عن العقيدة الإسلامية .

وثانيهما : يقف منه موقف الخصومة والمعارضة ، ويقيم الأدلة على فساد منهجه ويبين الآثار الضارة التى ترتبت على اتباعه والأخذ بطريقته (١).

ولا مانع من أن نعرض لآراء المؤيدين لعلم الكلام ، وآراء المعارضين له :

أولا — آراء أنصار علم الكلام أو العقيدة أو التوحيد :

يؤكد هذا الفريق من العلماء على مشروعية علم الكلام وأهميته وضرورة الاشتغال به ، ويرون أنه أحرى العلوم الشرعية بعقد الهمة بها وصرف الزمان إليها . ويسوقون على ذلك العديد من الأدلة والبراهين . أهمها :

١ — يذكر البعض أن علم الكلام أفضل المعارف الدينية ، وأشرف العلوم الشرعية ، لأنه يتعلق بأشرف المعلومات ، وهى ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ، كما أنه أساس غيره من العلوم الدينية ورأسها ورئيسها . فإنه مالم يثبت وجود صانع مختار لم يثبت شىء منها كذلك فإن الحاجة إليه أشد ، وبراهينه أقوى . كما أن ضد علم الأصول

(١) رزق الحجر ابن الوزير اليمنى ومنهجه الكلامى ص ١١٧، ١١٨.

هو الكفر والبدعة ، وهما من أخس الأشياء فوجب - كما يقول الرازى - أن يكون أشرف الأشياء (١) .

وفوق ذلك فإن هـذا العلم لا يتطرق إليه النسخ ولا التغيير ، ولا يختلف باختلاف الأمم والنواحى ، كما أن الآيات المشتملة على مطالبه أشرف من غيرها بدليل ما جاء فى فضيلة « قل هو الله أحد » الاخلاص (٢) ، وآية الكرسى ، ونحوها من الآيات ، وبهذا كان علم الكلام مشتملا على جميع جهات الشرف والفضل (٣) .

٢ — أثبت أنصار علم الكلام والمؤيدين له أنه قد ثبت بالأدلة العقلية والنقلية أن تحصيل هذا العلم من الواجبات .

ودليل ثبوت ذلك بالعقل أن المسلمين قد أجمعوا على وجوب معرفة الله سبحانه وتعالى ، مع اتفاقهم على أنها من أعظم القرب وأعلى موجبات الثواب . فإذا ثبت وجوب ذلك بالإجماع فمن الضرورة ثبوت وجوب وجوبه وجوب ما لا يتصل إليه إلا به (٤) .

كذلك فإن تقليد البعض ليس أولى من تقليد الباقى . فإما أن يجوز تقليد الكل فيلزمنا تقليد الكفار . وإما يجب تقليد البعض دون البعض

---

(١) الرازى مفاتيح الغيب حـ ١ صـ ٢٠٧

(٢) الإيجى المواقف حـ ١ صـ ٥

(٣) الإيجى المواقف جـ ١ صـ ١٥٧

(٤) الجوينى الشامل فى أصول الدين حـ ١ صـ ٣٠ ، ٣١

وراجع : رزق الحجر ابن الوزير اليمنى ومنهجه الكلامى صـ ١١٨ ، ١١٩

من غير أن يكون له سبيل إلا أنه لم يقلد أحدهما دون الآخر . وإما ألا يجوز التقليد أصلا وهو المطلوب .

فإذا بطل التقليد لم يبق إلا هذه الطريقة النظرية . وقد دل القرآن الكريم على ذلك حيث ذم التقليد وندب الناس إلى النظر والاستدلال والرجوع إلى الاعتبار ، وأمر بمجادلة المشركين بالدلائل العقلية (١) .

أما دليل النقل على ذلك فقول الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» فالمراد بالحكمة(٢) . هنا هو البرهان والحجة فالدعوة بالحجة والبرهان إلى الله تعالى مأمور بها وكذلك المراد بقوله تعالى في الآية : « وجادلهم بالتي هي أحسن » ليس المجادلة في فروع الشرع لأن من أنكر نبوته لا يخالفه . فعلمنا أن هذا الجدال كان في التوحيد والنبوة . فكان الجدال مأموراً به . ثم إنا مأمورون باتباعه عليه الصلاة والسلام فوجب كوننا مأمورين بذلك الجدال (٣) .

ومما يدل من القرآن كذلك على أن تحصيل هذا العلم من الواجبات أنه تعالى قد أمر بالنظر . فقال : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (٤)

---

(١) انظر الإيجي . المواقف جـ ١ ص ٢٥١ والرازي مفاتيح الغيب . جـ ١ صـ ٣٠٧ .

(٢) سورة النحل الآية رقم ١٢٥

(٣) الرازي مفاتيح الغيب جـ ١ ص ٣٠٧ .

(٤) سورة النساء . الآية رقم ٨٢

وقال تعالى : «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ◌ وإلى السماء كيف رفعت ◌ وإلى الجبال كيف نصبت ◌ وإلى الأرض كيف سطحت »(١): وهناك كثير من الآيات التى تدعو إلى التفكير والنظر فى السموات والأرض وما خلق الله فيها . ليصل الإنسان إلى الإيمان بالله (٢). كما أنه سبحانه وتعالى ذكر التفكر فى معرض المدح فقال : « إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » (٣) . ولما نزل قوله تعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار » (٤). قال عليه الصلاة والسلام : « ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر فيها » . فهو وعيد لمن ترك التفكر فى دلائل المعرفة (٥).

وقد ذم الله تعالى المعرضين عن التفكير فى قوله تعالى : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (٦).

٣ — إن الدلائل الواردة فى علم الكلام لإثبات العقائد مأخوذة من القرآن الكريم ، معلومة للنبي ﷺ وصحابته .

فقد تضمن القرآن أدلة إثبات وجود الصانع سبحانه وأدلة التوحيد والصفات ، وإثبات النبوة ، والمعاد ، وغير ذلك من العقائد ، أما وجود

---

(١) سورة الغاشية . الآيات ١٧ — ٢٠

(٢) د / أحمد السايح فلسفة الحضارة الإسلامية ص ١١١ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٠ هـ .

(٣) سورة الزمر . الآية ٢١

(٤) سورة آل عمران الآية رقم ١٩٠

(٥) انظر رزق الحجر ابن الوزير اليمنى ص ١٢٠

(٦) سورة يوسف . الآية رقم ١٠٥

الصانع فقد دل عليه القرآن بخلق المكلفين، وخلق من قبلهم ، وخلق السماء والأرض ، وخلق الثمرات من الماء النازل من السماء إلى الأرض. وكل ما ورد فى القرآن من عجائب السموات والأرض فالمقصود منه كذلك »(١) .

وأما التوحيد فالذى يدل عليه قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »(٢) .

ومما يدل على الصفات ما جاء فى الاستدلال على العلم — مثلا — وهو قوله تعالى : « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء »(٣) ، وقوله سبحانه : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »(٤) .

٤ — وقد حكى الله تعالى فى كتابه الكريم الاستدلال بهذه الدلائل على الملائكة وأكثر الأنبياء ومنهم نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فهؤلاء جميعاً قد أخذوا ، واعتمدوا عليها ، وبيان ذلك أن الله تعالى قد أجاب ملائكته إذ سألوه « أتجعل فيها من يفسد فيها »(٥) بقوله تعالى : « إنى أعلم مالا تعلمون» فالمراد بسؤالهم أن خلق مثـــل هذا الشىء قبيح ، والحكيم لا يفعل القبيح ومعنى جوابه تعالى أنى لما كنت عالماً بكل المعلومات كنت قد علمت فى خلقهم وتكوينهم حكمة لا تعلمونها أنتم.. ولاشك أن هذا هو المناظرة ، ومثل ذلك مناظرته مع إبليس ..

---

(١) رزق الحجر ابن الوزير اليمنى ص ١٢٠

(٢) سورة الأنبياء الآية رقم ٢٢

(٣) سورة آل عمران . الآية رقم ٥

(٤) سورة الملك الآية رقم ١٤

(٥) سورة البقرة الآية رقم ٣٠

وأما الأنبياء فأولهم آدم عليه السلام ، وقد أظهر الله تعالى حجته على فضله بأن أظهر علمه على الملائكة،وذلك محض الاستدلال كذلك استدل إبراهيم عليه السلام لنفسه وعلى قومه وعلى ملك زمانه(١) ، وأما محمد عليه الصلاة والسلام فقد كان اشتغاله بالدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد والرد على فرق الكفار المختلفة أظهر ، من أن يحتاج معه إلى تطويل ، كما أن القرآن مملوء بالردود على هذه الطوائف ، وإذا ثبت أن هذه الحرفة هي حرفة كل الأنبياء والرسل عليهم السلام علمنا — كما يقول الرازى — أن الطاعن فيها إما أن يكون كافراً أو جاهلا(٢) .

٥ — إن ظهور علم الكلام فى زمن أتباع التابعين استتبعه استحسان وتم تدوينه بالكتب فيعد من هــذا الوجه من قبيل البدعه الحسنة به انزاحت الشبه عن قلوب أهل الزيغ ، وثبت قدم اليقين للموحدين(٣) .

٦ — إن أدلة العقول لازمة لبيان صحة أصول الدين وحقائقها لأن المنهاج الصحيح فى معرفة حق الكتاب وصدق الرسول ﷺ مستند من البراهين العقلية (٤) .

٧ — ولعل أهم ما يحتج به أنصار علم الكلام : أن هذا العلم ضرورى لرد شبهات الملحدين والمبتدعة ، وفيه حراسة العقيدة على العوام وحفظها

---

(١) الأشعرى رسالة فى استحسان الخوض فى علم الكلام ، سبق ذكرها .

(٢) الرازى مفاتيح الغيب جـ ١ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩

(٣) د/مصطفى حلمى قواعد المنهج السلفى ص٧٩

(٤) المصدر السابق ص٧٩ ط دار الصحوة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤م

على تشويشات المبتدعة ، وهذا من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق(١) .

٨ — ويدل على أهمية علم الكلام أن بعض من نهوا عن الاشتغال به قد خاضوا فيه ، وتكلموا في مسائله ، وصنفوا في ذلك ، وأشهر هؤلاء على سبيل المثال الإمام أبو حنيفة ، فقد صنف في ذلك كتاب الفقه الأكبر وكتاب « العالم والمتعلم » اللذين صرح فيهما بأكثر مباحث علم الكلام(٢) .

٩ — إذا جعل أصل الدين الإتباع — لا العقل — فإن ذلك مخالفة للكتاب ، لأن الله تعالى ذم التقليد في القرآن ، وندب الناس إلى النظر والاستدلال آمراً بمجادلة المشركين بالدلائل العقلية ومن تدبر القرآن ونظر في معانيه وجد تصديق هذا الأصل(٣) .

١٠ — ويروى أنه لما منع الرشيد من الجدال في الدين، وحبس أهل الكلام ، كتب إليه ملك السند يطلب من يناظره، فوجه إليه الرشيد قاضياً لم يحسن الجدل ، فاضطر إلى البحث عمن يناضل عن الدين ، وأخرج أهل الكلام من السجن ووقع اختياره على أحدهم فبعثه للمناظرة(٤).

---

(١) طاشي كبرى زادة مفتاح السعادة ج٢ ص١٦١

(٢) المصدر السابق ج٢ ص ١٦١

(٣) السيوطي صون المنطق ج١ ص١٥٧

(٤) الدكتور مصطفى حلمي قواعد المنهج السلفي ص٨٠.

ثانياً : آراء المعارضين لعلم الكلام :

يعتبر علم الكلام من العلوم التي تعرضت لعداء الكثير من الطوائف الإسلامية وإذا كان أنصار علم الكلام – كما عرفنا من الأدلة التي عرضناها – يضعونه في مقدمة العلوم الإسلامية ، ويخلعون عليه شرف رياستها ويعتبرونه السلاح الأمثل في نصرة الإسلام ، والذود عن حياضه فإن المعارضين ينكرون عليه أشد النكير ، ويوجهون إليه سهام النقد ، وينهون عن الخوض فيه والاشتغال به ، ويقدمون لذلك العديد من الأدلة(١) .

١ – إن طرق المتكلمين في الاستدلال فاسدة وأدلتهم لا توصل إلى اليقين وبيان ذلك أنهم يعتمدون في أدلتهم على طريقة الإستقراء أو طريقة القياس، أو طريقة الاستدلال على انتفاء المدلول لانتفاء دليله، أو الجدل ، وهي كلها طرق لا تؤدي إلى اليقين .

أما الاستقراء وهو أساس المفهومات العامة والقضايا الكلية فإنه :

١ – مبنى كله على الحس ، أنه استقراء محسات ، إنه تتبع جزئيات ، لا تخرج عن نطاق المادة ، أما المساتير فهو بعيد عنها كل البعد ، أنها لا تدخل في دائرة اختصاصه ، فهو عاجز عن أن يخترق الحجب ليصل إلى ماوراء الطبيعة(٢) .

٢ – ثم إن الاستقراء : تام وناقص ، والتام – كما يعترف المناطقة – لا ثمرة له ، ولا فائدة فيه .

---

(١) رزق الحجر ابن الوزير اليمني ومنهجه الكلامي ص ١٢٣

(٣) الدكتور عبد الحليم محمود مقدمة المنقذ من الضلال ص٢٩١، ٢٩٢ ط دار الكتاب اللبناني بيروت .

أما الناقص — وهو المهم فى نظرهم — فإنه فى رأيهم أيضاً ظنى وهو لذلك عرضة للتغيير فى كل آونة .

«كل معدن يتمدد بالحرارة » تلك قضية من قضايا الاستقراء إنها قضية عامة شاملة ، ولكن المعادن لم تكشف بعد بأ كملها . ومن الجائز أن يكشف فى الغد معدن لا يتمدد بالحرارة . إنها إذن قضية مؤقتة ظنية يتبرأ منها اليقين الفلسفى . .

والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله ، وإنما حقائقه كلها إضافية موقوته، لها قيمتها حتى يتكشف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيرها .

وهكذا قضايا الاستقراء،إنها خاصة بالطبيعة ولا شأن لها بماوراءها، وأنها ظنية لاتعرف اليقين(١) .

أما القياس فإنه مبنى على الاستقراء إذ هو منطو دائماً على كلية استقرائية مادامت قضايا الاستقراء ظنية وميدانها المحسات فنتائج القياس ظنية كذلك وميدانها المحسات ، ثم إن المناطقة لا يشترطون فى مقدمات القياس أن تكون مسلمة صادقة فى نفسها وإنما يشترطون أن يسلمها المتجادلون فحسب وقد تكون منكرة كاذبة فى نفسها ، وفى هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ونتيجته باطلة وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟ ماقيمته ، إذا كان لا يعول فيه إلا على أن تكون المقدمات مستوفية لشروط الإنتاج بحيث تستلزم النتيجة ، وإن لم تطابق النتيجة الواقع .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٢

ماقيمته إذا كان لايحفل بصدق النتيجة أو كذبها . إنك إذا قلت : الكثير من العلم يؤدى إلى الاستقلال الفردى . وما يؤدى إلى الاستقلال الفردى مضر بالمجتمع . فالكثير من العلم مضر بالمجتمع . كان هذا قياساً صحيحاً فى نظر المناطقة .

وإذا قلت : الكثير من العلم يؤدى إلى التماسك الاجتماعى ، وكل ما يؤدى إلى التماسك الاجتماعى مفيد للمجتمع . فالكثير من العلم مفيد للمجتمع . كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند المناطقة . ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان .

ومع هذا فالقياس استدلال دورى فاسد . ذلك أن العلم بالنتيجة فى نحو قولنا : محمد إنسان وكل إنسان ناطق فمحمد ناطق . متوقف على العلم بالكبرى ، والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة . لأنك لاتستطيع أن تحكم بالناطقية على جميع أفراد النوع الإنسانى . إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد . ولو كنت فى شك من ذلك لما استطعت تعميم الحكم بالناطقية على جميع أفراد الإنسان . وإذن تكون الكبرى متوقفة على النتيجة والنتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس : استدلالا دورياً فاسداً فلا يعول عليه .

وأخيراً فالمفروض أن نتيجة القياس جديدة كل الجدة إنها استنتاج مجهول هو النتيجة من معلوم هو المقدمات . ولكن النتيجة متضمنة فى المقدمات ، إنها ليست مجهولة .(١)

فطريقة القياس لاتفيد فى الإلهيات وجميع المساتير .

---

(١) د/ عبد الحليم محمود مقدمة المنقذ من الضلال ص ٢٩٢ — ٢٩٤

والمتكلمون قد استخدموا القياس بعد أن استعاروه من أصول الفقه وغاب عنهم أن كل منهج يجب أن يتناسب مع الموضوع الذى ينطبق عليه(١).

أما طريقة الاستدلال على انتفاء المدلول لانتفاء دليله . فقد أثبت الإمام الغزالى بطلانها فى قوله : « أما ترى أن صحة الصلاة يلزمها لا محالة كون المصلى متطهراً . فلا جرم يصح أن تقول : إن كانت صلاة زيد صحيحة فهو متطهر . ومعلوم أنه غير متطهر ، وهى نفى اللازم . فلزم منه أن صلاته غير صحيحة وهى نفى الملزوم .

وكذلك إن قلت : ومعلوم أن صلاته صحيحة . وهذا وجود الملزوم فيلزم منه أن صلاته صحيحة .

فهذا خطأ . لأنه ربما بطلت صلاته بعلة أخرى . فهذا وجود اللازم ولم يدل على وجود الملزوم .

وكذلك إن قلت : ومعلوم أن صلاته ليست بصحيحة فهو إذن كان غير متطهر .

وهذا خطأ غير لازم ، لأنه يجوز أن يكون عدم صحة الصلاة لفقدان شرط سوى الطهارة ، فهذا نفى الملزوم ولم يدل على نفى اللازم »(٢)

أما طريقة الجدل :

وهى طريقة تعتمد على مسلمات الخصم وتتسم بالتدقيق وتحديد

---

(١) انظر رزق الحجر ، ابن الوزير اليمنى ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) الغزالى القسطاس المستقيم ص ٣٩ ، ٤٠ .

الاحتمالات والفروض . وتهدف أساساً إلى التغلب على الخصم، فهى أكثر الطرق تعرضاً للنقد . بل قد يصح القول بأنها كانت السبب المباشر فى جانب العداوة إلى علم الكلام بما أنتجت من خصومات وخلافات(١)

يقول ابن حزم فى نقده لطريقة الجدل :

« فإن تعلق المرء بما يقول خصمه ضعف وإنما يلزم المرء أن يخلص قوله مجرداً لاأسوة له فى تناقض خصمه ، بل لعل خصمه لا يقول ذلك »(٢) .

وقد وصف الغزالى أهل الجدل والشغب بأنهم يتبعون ماتشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة . وبين بطلان الجدل القائم على أساس القسمة العقلية حين قرر أننا لو سلمنا بأنهم وصلوا بقسمتهم العقلية إلى استقصاء جميع الاحتمالات فإنه لا يلزم من أبطال ثلاث ثبوت رابع . فقد تكون الأقسام كلها باطلة (٣).

كذلك الخطابى عاب طريقة الجدل هذه فى رسالته : « الغنية عن الكلام » فى قوله : والجدل لايبين به حق ولا تقوم به حجة . وقد يكون الخصمان على مقالتين مختلفتين كلتاهما باطلة ، ويكون الحق فى ثالثة غيرهما . فمناقضة أحدهما صاحبه غير مصحح مذهبه وإن كان مفسِداً به قول خصمه »(٤) .

---

(١) رزق الحجر ابن الوزير اليما ... ني ص ٢٥

(٢) ابن حزم الفصل ج ١ ص ٢٠ ط بيروت

(٣) الغزالى القسطاس المستقيم ص ٦٢ وانظر الدكتور محمود قاسم دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ١٥٣

(٤) السيوطى ... ن المنطق ص٩٩، ١٧٦

٢— يرى أهل الحديث أن العقل لا يوجب شيئاً، فلا دور له ولا حظ ، فى تحليل أو تحريم ، أو تحسين أو تقبيح ، مالم يرد به الوحى . مستدلين على ذلك بقول الله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(١) :

وقوله عز وجل : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »(٢) .

وقال تعالى حاكياً عن الملائكة فيما خاطبوا به أهل النار « ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى » (٣) .

فيتبين من هذه الآية أنه عز وجل أقام عليهم الحجة ببعث الرسل . فلو كانت الحجة لازمة بنفس العقل لم تكن بعثة الرسل شرطاً لوجوب العقوبة ، وإذا تأسس الإيمان عن العقل لأدى ذلك إلى إنكار دور الرسل وكأن وجودهم وعدمه بمنزلة واحدة . أو كأنهم اقتصروا فى دعوتهم على الشرائع وفروع العبادات دون أصول الدين(٤)

٣ — وأيضاً ففى الدين معقول وغير معقول والاتباع فى جميعه واجب . وأن الله تعالى هو الذى يعرف العبد ذاته .

فقد ثبت أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « والله لولا الله مااهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا » .

---

(١) الإسراء الآيه رقم ١٥
(٢) النساء : الآية رقم ١٦٥
(٣) الزمر الآية رقم ٧١
(٤) د / مصطفى حلمى قواعد المنهج السلفى ص ٨٠ ، ٨١

فدل على أن الله تعالى يعرف العبد مع وجود العقل سبب الإدراك والحجة لقوله عز وجل : « إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون »(١) :

وقال : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب »(٢)

وقال تعالى مخبراً عن أصحاب النار : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير »(٣).

فالعقل آلة لإقامة العبودية وإدراك الربوبية . فهو آلة التمييز بين القبيح والحسن ولولاه لم يكن تكليف ولا توجه أمر ولا نهى(٤)

٤ — مايتعلق بالنتائج والآثار التى ترتبت على الاشتغال بعلم الكلام وأهم هذه الآثار ماحدث من اختلاف المتكلمين فيما بينهم . فذلك أثر خطير مزق أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — شيعاً وأحزاباً ، وفرقها فرقاً متباينة متطاحنة ترمى كل منهما الأخرى بالكفر والضلال أو تنسبها إلى الفسق والبدع . مما فك وحدة المسلمين ، وبدد قوامهم(٥).

٥ — إن القرآن الكريم قد اشتمل على البراهين العقلية على أصول الدين ، فاذا ثبت ذلك وثبت معه أن البراهين العقلية الواردة فى القرآن خير من أدلة المتكلمين، ولاتثير بين المسلمين ما أثارته الأخيرة من خلاف

---

(١) النحل الآية رقم ٦٧
(٢) سورة (ق) الآية رقم ٣٧
(٣) سورة الملك الآية رقم ١٠
(٤) د / مصطفى حلمى قواعد المنهج السلفى ص ٨١
(٥) ابن وزق الحجر ابن الوزير اليمنى ص ١٢٦ ، ١٢٧

وشتات تفكير للمسلمين ، إذا ثبت هذا صح فيما يراه خصوم الكلام المنع من الاشتغال بهذا العلم ودلائله(١) .

٦ — إن الاشتغال بعلم الكلام بدعة ويدلنا على أن علم الكلام بدعة مخالفته لطريقة النبي ﷺ وصحابته في الدعوة إلى الدين . فقد كان ﷺ كما هو المشهور الصحيح يدعو الكفار إلى الإسلام من غير أن يأمرهم بالنظر في الأدلة على أساليب المتكلمين(٢) .

٧ — وهناك أقوال جاءت عن الأئمة الأعلام « تنهى عن علم الكلام ومن ذلك ما ذكره ابن عبد البر : «نهى السلف — رحمهم الله — عن الجدال في الله ، جل ثناؤه ، في صفاته ، وأسمائه ، وأما الفقه فأجمعوا على الجدال فيه والتناظر . لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع إلى الأصول . للحاجة إلى ذلك ، وليست الاعتقادات كذلك ، لأن الله عز وجل لا يوصف عند الجماعة إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسول الله ﷺ ، أو أجمعت الأمة عليه ، وليس كمثله شيء ، فيدرك بقياس أو إنعام نظر ، وقد نهينا عن التفكير في الله ، وأمرنا بالتفكير في خلقه الدال عليه(٣) » .

وعن مصعب ابن عبد الله الزبيري قال : « كان مالك بن أنس يقول : الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه . نحو الكلام في رأى « جهم » والقدر ، وما أشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل »(٤) .

---

(١) انظر رزق الحجر ابن الوزير اليمني ومنهجه الكلامي ص ١٣٠
(٢) المصدر السابق ص ١٣٧
(٣) ابن عبد البر جامع بيان العلم وفضله ص ٦٢
(٤) الغزالي المنقذ من الضلال الهامش ص ٨٧

وقال مالك : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم الدين جديد ؟ .

وقال ابن عبد الأعلى — رحمه الله — سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد وكان من متكلمي المعتزلة يقول : « لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب — ما خلا الشرك بالله — خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام(١).

وقد لمس أبو حنيفة رضي الله عنه أخطر عيوب الكلام في قوله : — حين نهى ولده حماداً عن الكلام ، فاحتج عليه بأن سمعه يتكلم فيه — « يا بني ، كنا نتكلم وكل واحد منا كأن الطير على رأسه مخافة أن يزل صاحبه ، وأنتم اليوم تتكلمون كل واحد يريد أن يزل صاحبه ، ومن أراد أن يزل صاحبه فكأنه قد كفر ، قبل أن يكفر صاحبه »(٢) .

وأن الباحث عن هذه المرويات يجدها كثيرة . والكثير منها يحذر من الاشتغال بعلم الكلام لأنه بدعة .

---

(١) الغزالي إحياء علوم الدين ج١ ص١٨٢

(٢) السيوطي صون المنطق ص٣٣

وقفة و تعقيب

إن المتأمل والباحث فى آراء المعارضين لعلم الكلام . يجد أن هذه الآراء التى حسبها المرددون لها أنها معارضة لعلم الكلام ليست معارضة عند الفهم الواعى . لأنها قيلت ممن قالوها ، لأمور أخرى . وأخطر من هذا كله أن يردد المرددون ما ظنوه أنه يعارض علم الكلام ، دون أن يعرفوا ما هو علم الكلام ، وتجدهم ينبرون معلنين خصومتهم لعلم الكلام دون فهم ، ونسوا أن السلف الذين واجهوا ما دخل على علم الكلام ، إشتغلوا بعلم الكلام ، وإلا لما استطاعوا أن يردوا ويفندوا ويواجهوا .

ومشكلة المسلمين فى عصرهم الحاضر هو جهل أبناءهم بأبسط قواعد الخلق والمعرفة . أنهم يخاصمون ويعارضون ويفتون دون أن يفهموا مقاصد السلف الصالح .

وهناك أسئلة ترد على من يبحث ويتأمل :

— هل كان الأئمة الذين عارضوا علم الكلام على دراية بعلم الكلام ؟

— وما المقصود عندهم بعلم الكلام ؟

— وما المقصود بعلماء الكلام عندهم ؟

— وما الأسباب التى دفعت هؤلاء إلى أن يقفوا هذا الموقف من علم الكلام ؟

وإن المتتبع لسير الأعلام الأئمة الذين نهوا عن الخوض فى علم الكلام ، يجد أنهم كانوا علماء بعلم الكلام ، وعلى دراسة بقضايا هذا العلم .

وأما المقصود بعلم الكلام الذى نهوا عنه وعارضوه : فهو ذلك الجدل الذى كان يثار فى عصرهم حول بعض مسائل القضاء والقدر ، وفتنة القول بخلق القرآن وما شابهها . لا بقصد الوصول إلى الحق ، وخدمة الدين ، بل بقصد الانتصار للنفس، والإستعلاء على الآخرين .

والمقصود بعلماء الكلام : هم أهل الأهواء والبدع والنزعات المجافية للفطرة والتوحيد(١) .

وأما الأسباب التى دفعتهم إلى أن يقفوا هذا الموقف من ذلك العلم ، فهى متعددة ومتشعبة ، بعضها يرجع إلى موضوع علم الكلام وبعضها يعود إلى منهج البحث فيه ، وبعضها الآخر يكمن فى القائمين عليه .

أما السبب الذى يعود إلى موضوع علم الكلام فهو خطورة الموضوعات التى كان يتناولها هذا العلم .

وأما السبب الذى يرجع إلى منهج البحث فى علم الكلام . فقد كانوا يؤمنون بأن للعقل حداً يقف عنده(٢) .

وأما السبب الذى يكمن فى القائمين على علم الكلام : فإن بعضهم انحرف بهذا العلم إلى اللجاج والخصومة والعناد .

وبالإضافة إلى ما سبق بيانه هناك أمور يحسن بنا أن نعرض لها ، ونتعرف عليها . وهى :

---

(١) الدكتور سامى عفيفى حجازى مدخل لدراسة علم الكلام ص ١٠٢ ط المطبعة المحمدية .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٣، ١٠٤ بتصرف واختصار .

— أن السلفيين يرون أن علم الكلام هو ما تمخضت به جهود المعتزلة وغيرهم ممن يخرجون على ظاهر النص ومن هذا ما ذكره شارح الطحاوية بقوله عن أبي يوسف رحمه الله تعالى أنه قال لبشر المريسي: العلم بالكلام هو الجهل والجهل بالكلام هو العلم . وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل زنديق أو رمي بالزندقة » .

ولا نشك — كما يقول الدكتور نصار — في أن ما قاله أبو يوسف إن صح ذلك إنما يتوجه إلى المراء والجدال واللجاج في أصول الدين الظاهرة مما ليس تحته عمل ، وهو التنطع المقيت كالجدل في طبيعة الذات الإلهية وعما سوى ذلك مما ليس للعقل فيه مدخل ، بل يتلقى من صاحب الشرع (١) .

— نحن لا ننكر أن القرآن والسنة هما مصدر هذا الدين ، ولكننا نتساءل : ما الذي يحتوي عليه هذان المصدران ؟ هل يحتويان على ما هو فوق أصول الدين وفروعه ؟ أعتقد أن الجواب بالنفي . وإذن فالمشتغل بأصول الدين مشتغل بهما بالضرورة . والمحظور الذي يخشى منه هؤلاء — وهو الخروج على إطار ما يفيده ظاهر النص . وتحكيم العقل في قضايا الدين الأساسية — نوافقهم على التشبث به عندما يتبين لنا سوء النية الذي يظهر من خلال ما لا يقبله العقل الصريح ، والذي يكون أثراً لثقافة وافدة ، وبيئة غير بيئتنا (٢) .

---

(١) الدكتور محمد عبد الستار نصار العقيدة الإسلامية ص ٣١

(٢) المصدر السابق ص ٣٣

— يذكر التفتازانى طوائف أربع تمنع من الاشتغال بعلم الكلام :

الأولى : من هو متعصب يقصد به ترويج مذهبه فيحرم لذلك تحقيق الحق فى مطالبه .

الثانية : من لم يرزق فطنة تفى بتوصيل اليقين ، فنظره فى مبادئه يفضى إلى التشكيك فى قواعد الدين . فعليه أن يتسم بسمة العاجز ، ويتدين بدين العجائز .

الثالثة : من هو معوج فى الدين مخطىء طريق اليقين .

الرابعة : من يتوغل فى الخوض فى الحكمة فيقع فى ظلمات الفلسفة فربما يعجب بفكره ورأيه والحق من ورائه(١) .

— ليس علم الكلام محموداً لذاته أو مذموماً لذاته . بل هو كما يقول الإمام الغزالى : فيه منفعة وفيه مضرة ، فهو باعتبار منفعته فى وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال : وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحله حرام أما مضرته فاثارة الشبهات وتحريك العقائد عن الجزم والتصميم(١) .

— المذموم من علم الكلام هو الكلام المخالف للقرآن الكريم والسنة النبوية . كإدخال قضايا لا توافق الكتاب والسنة أو إثبات مسائل على وجه لا يوافق الكتاب والسنة(٢) ،

---

(١) التفتازانى شرح العقائد النسفية ص ١٩

(٢) الغزالى إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٠٣ ط الحلبى

ومن شأن علم الكلام فى هذه العصور أن يتحول إلى ما هو أكثر فائدة للمسلمين عامتهم وخاصتهم فيبحث فى إثارة القضايا التى تثير العقل وتدفعه إلى التأمل ومعرفة الله سبحانه وتعالى والإيمان به .

وليس من شأن المسلمين فى هذا العصر — وفى كل عصر — أن يختلفوا فى اصرار وعناد ، حول مسائل لا يأتى البحث والخلاف حولها بجديد . وقد تكون هذه المسائل لا صلة لها بالتقدم العلمى الذى نحن فى أشد الحاجة إليه .

المراجع والمصادر

أولا : القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة .

ثانياً : المصادر والمراجع العامة والخاصة .

١ ــ أبو الحسن الأشعرى . مقالات الإسلاميين ط القاهرة ١٩٥٣م .

٢ ــ أبو الحسن الأشعرى . اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ط القاهرة .

٣ ــ أبو الحسن الأشعرى . الإبانة عن أصول الديانة ط بيروت .

٤ ــ أبو الحسن الأشعرى . رسالة فى استحسان الخوض فى الكلام ط بيروت .

٥ ــ أبو حامد الغزالى . إحياء علوم الدين ط القاهرة .

٦ ــ أبو حامد الغزالى . المنقذ من الضلال ط دار الكتاب اللبنانى .

٧ ــ أبو حامد الغزالى . الاقتصاد فى الاعتقاد ط الحلبى ١٩٦٦

٨ ــ أبو حامد الغزالى . القسطاس المستقيم ط سلسلة الثقافة الإسلامية .

٩ ــ أبو حامد الغزالى . الجام العوام عن علم الكلام ط ١٩٨٦

١٠ ــ أبو الوفاء التفتازانى . علم الكلام وبعض مشكلاته ط القاهرة ١٩٧٩ .

١١ ــ ابن حزم . الفصل فى الملل والأهواء والنحل ط بيروت .

١٢ — د/ أمنة محمد نصير مباحث فى علوم العقيدة ط مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٤ هـ .

١٣ — د / أحمد أبو السعادات . العقيدة الإسلاميـــة ط ١٩٨٣ القاهرة .

١٤ — الشيخ أحمد التابعى . مرشد الخلق إلى طريق الحق ط التقدم القاهرة .

١٥ — البغدادى . الفرق بين الفرق ط القاهرة .

١٦ — الإمام الجوينى . الشامل فى أصول الدين ط القاهرة .

١٧ — الإمام الجوينى . الإرشاد إلى قواطع الأدلة ط القاهرة .

١٨ — رزق الحجر . ابن الوزير ومنهجـــه الكلامى ط الدار السعودية .

١٩ — السيوطى . صون المنطق ط الأزهر .

٢٠ — سعد الدين التفتازانى . شروح العقائد النسفية ط الحلبى بمصر

٢١ — سليمان سليمان خميس . توضيح العقائد النسفيـة ط دار نشر الثقافة .

٢٢ — د/ إسامى عفيفى حجازى . مدخل لدراسة علم الكلام ط دار الطباعة المحمدية .

٢٣ — د/ سيد عبد التواب . محاضرات فى علم التوحيد ط الجبلاوى .

٢٤ — الشهرستانى . نهاية الأقدام ط بيروت .

٢٥ — الشهرستانى . الملل والنحل ط بيروت .

٢٦ — الإسفرايينى . التبصير فى الدين ط الحلبى بمصر .

٢٧ — طاش كبرى زاده . مفتاح السعادة ط القاهرة .

٢٨ — د/عبد الحليم محمود . مقدمة المنقذ من الضلال ط دار الكتاب اللبنانى .

٢٩ — عضد الدين الإيجى . المواقف ط دار السعادة بمصر .

٣٠ — د/ عوض الله حجازى . فى العقيدة والأخلاق ط القاهرة .

٣١ — د/ عبد الحميد شقير . تيسير الاقتصاد فى الاعتقاد ط القاهرة .

٣٢ — د/ عبد العزيز سيف النصر . فلسفة علم الكلام ط القاهرة .

٣٣ — د/عبد الرحمن بدوى . مذاهب الإسلاميين ط بيروت .

٣٤ — فخر الدين الرازى . مفاتيح الغيب ط دار الكتاب العربى .

٣٥ — فخر الدين الرازى . أساس التقديس ط القاهرة .

٣٦ — فخر الدين الرازى . محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ط البابى .

٣٧ — د/ مصطفى حلمى . قواعد المنهج السلفى ط دار الدعوة .

٣٨ — د/محمد على أبو ريان . تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ط دار المعرفة .

٣٩ — د/ محمود قاسم . دراسات فى الفلسفة الإسلامية ط دار المعارف .

٤٠ — د/ محمد عبد الستار نصار . العقيدة الإسلامية ط دار الطباعة المحمدية .

٤١ — محمد بن أبى العز الحنفى . شرح العقيدة الطحاوية ط بيروت .

٤٢ — د/مبارك حسن حسين . علم التوحيد ط القاهرة .

٤٣ — د/ محمود محمد مزروعة . دراسات فى العقيدة ط ١٩٧٢

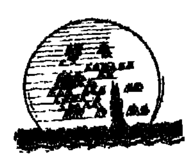
٤٤ — الشيخ مصطفى عبد الرازق . تمهيد لتاريخ الفلسفة ط ١٩٤٤

٤٥ — د/ مصطفى عمران . مقدمة علم الكلام ط ١٩٨٣

٤٦ — د/ محمد ربيع الجوهرى . الإمام الشافعى وعلم الكلام ط ١٩٨٦

٤٧ — د/ يحى هاشم . نشأة الآراء والمذاهب ط الأزهر ١٩٧٢

٤٨ — د/ يحى هويدى . دراسات فى علم الكلام والفلسفة الإسلامية ط ١٩٦٥



فهرس الموضوعات





رقم الإيداع بدار الكتب
٢٣٦٤/ ١٩٩٠ م



